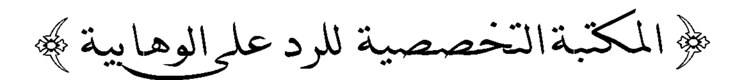
الوهابية

نقد وتحليل

د. همايون همتي



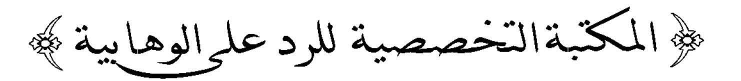
بسم الله الرحمن الرحيم


المكتبة التخصصية للرد على الوهابية

الوهابيه

نقد وتحليل

د. همايون همتي




المكتبة التخصصية للرد على الوهابية

الفهرست

الموضوع	الصفحة
تقديم	٩
كلمة بمثابة مدخل الى البحث	١٣
الاستعمار العالمي واصطناع المذاهب للتفريق	١٦
اهداف الاستعمار وما يقف بوجهها	١٦
روح تعاليم الاسلام	١٧
الاستعمار يبحث عن وسيلة	١٩
الاستعمار واصطناع الفرق	١٩
ـ الفرقة الشيخية	٢١
ـ الفرقة الوهابية	٢٣
المصادر الأُولى للفكر الوهابي	٢٥
ـ ابن تيمية	٢٥
ـ عقائد ابن تيمية	٣٥
ـ التوحيد عند ابن تيمية	٣٥
ـ توسيع دائرة الكفر والشرك	٣٦
ـ الاعتقاد برؤية الله و إثبات الجهة لذاته سبحانه	٣٧
نقد مقولة ابن تيمية في رؤية الله رؤية حسِّيَّة	٣٨

القول بنزول الله إلى السماء الدنيا ـــــ ٤٠
القول بعدم لزوم العصمة للأنبياء قبل أن يبعثوا ـــــ ٤٢
القسم بغير الله ـــــ ٤٦
توضيح القسم بغير الله ـــــ ٤٧
التوسل بالنبي (ص) والتشفُّع به وطلب الحاجات ـــــ ٤٧
توضيح التوسل بالنبي (ص) ـــــ ٤٨
ابن قيِّم الجوزية ـــــ ٥٠
المذهب الوهابي ومؤسسه ـــــ ٥٤
طريقة الشيخ محمدبن عبد الوهاب ـــــ ٥٨
نهاية ابن عبد الوهاب ـــــ ٥٩
مؤلفات محمدبن عبد الوهاب ـــــ ٦٠
نقد وتحليل لأسس العقيدة الوهابية ـــــ ٦٥
شبهة الشرك ـــــ ٦٨
التوحيد ومراتبه ـــــ ٦٨
١ ـــ التوحيد في الذات ـــــ ٦٨
٢ ـــ التوحيد في الصفات ـــــ ٦٩
٣ ـــ التوحيد في الأفعال ـــــ ٦٩
٤ ـــ التوحيد في العبادة ـــــ ٧٢
الشرك وأقسامه ـــــ ٧٥
١ ـــ الشرك في الذات ـــــ ٧٥
٢ ـــ الشرك في الصفات ـــــ ٧٥
٣ ـــ الشرك في الأفعال ـــــ ٧٦
عالم الخليقة له نظام ـــــ ٧٧
لغة ظاهر الشرع المقدّس في هذا الباب ـــــ ٧٩
لنتدبّر آيات القرآن الكريم بهذا الشأن ـــــ ٨٢

الله لا يحتاج الى «الوسائط» ـــــ ٨٧
الحدُّ بين التوحيد والشرك ـــــ ٨٨
الوهابية وإنكار الواسطة في عالم الوجود ـــــ ٩٥
التوسل لُغوياً ـــــ ١٠٤
التوسل في الفطرة ـــــ ١٠٤
التوسل في القرآن ـــــ ١٠٦
الشفاعـــة ـــــ ١٠٩
اعتراضات وشبهات ـــــ ١١٠
ضعف القانون ـــــ ١١٢
أنواع الشفاعة ـــــ ١١٤
نقض القانون ـــــ ١١٤
حفظ القانون ـــــ ١١٦
شفاعة المغفرة ـــــ ١١٩
جاذبية الرحمة ـــــ ١١٩
مبدأ التطهير ـــــ ١٢١
مبدأ السلامة ـــــ ١٢١
علاقة المغفرة بالشفاعة ـــــ ١٢٣
شروط الشفاعة ـــــ ١٢٤
الشفاعة من الله ـــــ ١٢٥
التوحيد والتوسل ـــــ ١٢٧
أجوبة الإعتراضات ـــــ ١٢٨
الوهابيون وتفكير المسلمين ـــــ ١٣١
الوهابيون وانتهاكهم حرمة المسلمين..... ـــــ ١٣٣
الوهابيون يعصون أمر الله ـــــ ١٣٦
موقف الإسلام الصريح ـــــ ١٣٨

هتك شخصية المؤمن ———— ١٤٢
الإفتراء على المؤمن ———— ١٤٢
فتاوىٰ العلماء ضد تكفير المسلمين ———— ١٤٣
مذبحة المسلمين في كربلاء على أيدي الوهابيّين ———— ١٤٨

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

يتناول هذا الكتاب المذهب الوهابي بالنقد و التحليل.

ان المذهب الوهابي، الذي استولده محمدبن عبدالوهاب، باستلهام افكار أشخاص مثل (ابن تيمية) و (ابن قيّم الجوزية)، مذهب منحرف وسطحي وبعيد عن تعاليم الاسلام المحيية السامية. انه منذ ولادته لم يثمر سوى التفرقة والدمار والتخريب ونشر الفساد في العالم الاسلامي وبين المسلمين.

هذا المذهب، الذي يزعم أنه شديد التمسك بالتوحيد الخالص، و يستنكر كل ألوان الشرك وعبادة الأصنام، ينهمك عمليا في التساوم مع رؤوس الكفر والشرك في عالم اليوم. بل حتى من الناحية النظرية، وعند التحليل العميق، يتبين بكل وضوح أنه، على عكس كل تلك المزاعم الغريبة والاسطورية، ليس سوى مذهب من المذاهب الملوثة بالشرك ، ولون من ألوان المادية والسطحية وعبادة الظاهر، وأن ادعاءاته التي يخدع بها العامة من الناس ليست سوى رسوم على سطح الماء.

يتميز هذا المذهب، من حيث الأسس العقائدية، بالبدائية والضعف التام، ويحمل مفاهيم سطحية جداً وواهية عن آيات القرآن والروايات والأخبار.

الوهابية، باختصار، مذهب لا ينظر إلاّ إلى وجهة واحدة يعبد الظاهر، ويدعو الى الهدم، و ينشر الفساد، وقد كانت له آثار مشؤومة دائما في عالم الاسلام،

ولم يثمر للمسلمين والمستضعفين في العالم حتى الآن سوى التفرقة، و تمزيق وحدة صف أبناء التوحيد، وتقوية جبهة الكفر والإلحاد.

إننا نؤمن بأن العقيدة الوهابية المنحرفة والاستعمارية ــ التي ظهرت الى عالم الوجود بأمر مباشر من وزارة المستعمرات البريطانية على يد محمد بن عبدالوهاب ــ هي اليوم من أمضى أسلحة الاستعمار الدولي والاستكبار العالمي ضد المسلمين كافة. إن تعاليم هذا المعتقد السطحي المنحرف تقف حجر عثرة ضخماً في طريق وحدة المسلمين واتحاد أصحاب القبلة الواحدة في العالم. وأي ضرر أشد وأبلغ ــ في هذا العالم المضطرب الذي تشتد فيه حاجة المسلمين وتتزايد يوماً بعد يوم إلى وحدة الصفوف التي يشعرون بافتقارهم إليها بكل جوارحهم ومشاعرهم ــ من أن ينبري فريق باسم التوحيد ومحاربة الشرك إلى اتخاذ محاربة أهل التوحيد ومصادقة أهل الشرك ديدناً لهم، يمزقون صفوف المسلمين بذرائع خاوية وكاذبة، مثل محاربة الشرك وعبادة الأصنام، وذلك لكي يمهدوا الطريق لشيطان الاستعمار المتعطش للدماء ليوغل في سلب ثروات المسلمين ونهبها دون عناء، وليستحوذ على المزيد من مصادر الثروة الغنية عند المسلمين.

إن مايمكن أن يقال عن الوهابية كثير، ولكننا لضيق المجال اقتصرنا على تناول أهم افكار هذه الفرقة و عقائدها، و اخضعناها للتحليل العقلي والنقلي والبراهين الدامغة الصريحة، مستندين إلى آيات كتاب الله النيرة، وأحاديث أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام ــ وهم أهل بيت النبوة، ومصابيح الهداية، وحاملو ألوية مدرسة التوحيد ــ لكشف بطلان مزاعم الوهابيين وتوضيح معتقداتهم المتناقضة للرأي العام.

وعلى الرغم من أننا لم نؤد الموضوع حقه كما يجب، إذ كان الواجب أن نتناول جميع عقائدهم وأفكارهم، كبيرها وصغيرها، بالنقد والتحليل، إلّا أن هذا الذي قلناه و بحثناه يكفي الحصيف المنصف ليميز الحق من الباطل، ويدرك بطلان مزاعم الفرقة الوهابية وزيف ادعاءاتها.

لقد سعينا في هذا البحث الى الاعتماد على مصادر من الدرجة الأولى،

مثل مؤلفات رؤوس الفرقة الوهابية وكتبهم، نتناول أفكارهم فيها بالنقد حتى لايبقى موضع لإنكار منكر.

أما النظام الحاكم على الحجاز ـ معقل الوهابية ـ فإننا لم ندخله في البحث لئلا يظن القارئ أننا إنما نواجه مجرد نظام منحرف سياسياً واجتماعياً، بل سعينا إلى أن نبين أن النظام الفكري الوهابي نظام خاوٍ واستعماري و منحرف، وهو مدان و مرفوض عقلاً و منطقاً. ونتيجة لهذه النظرة يدرك القارئ جيداً أن طراز الفكر الغلط في مدرسة منحرفة لا يمكن ـ عند التطبيق بصورة نظام سياسي و اجتماعي ـ إلّا أن يؤدي الى الضلال والهلاك والتبعية للأقطاب الاستعمارية في العالم، واتخاذ مواقف غير سليمة. إن أفكار الوهابيين الغلط، التي تتجسد في نظام يحكم الحجاز، مركز الوهابية، لم تنتج سوى الإنحراف والفساد، وذلك لأن وضع فكرة مغلوطة في التطبيق لا يمكن أن يؤدي إلّا إلى نتائج مغلوطة و منحرفة. أيمكن لفكرة ينضح الخطأ والانحراف من كل جوانبها أن توضع موضع التطبيق وتتحقق في قالب نظام اجتماعي، ثم تكون نتائجها سليمة وطيبة؟ ألا يرتبط الفكر والعمل والواقع بعض ببعض ارتباطا لاينفك ؟ كيف يمكن للفكر الغلط أن يؤدي إلى نتيجة صحيحة؟ إن هذا الأمر مرفوض و باطل من حيث المقاييس العقلية والمنطقية.

فإذا كان الأمر كذلك ـ وهو لاشك كذلك ـ فإننا سرعان ماندرك السبب في قيام بلد هو حصن الوهابية باتخاذ هذه المواقف المنحرفة وغير السليمة، كالارتماء في أحضان أمريكا والركوع أمام القوى العظمى، ولكنه بالنسبة لإيران الاسلامية الثورية، مهد الحرية والتوحيد والمعنويات، ومعقل الثورة والكفاح والنضال ضد الظلم و الشرك والإلحاد وعبادة الأصنام، يقف مثل هذه المواقف، وما ذلك إلّا نتيجة للأُسس الفكرية الغلط التي يتبنّاها قادة الوهابية، إذ اننا نعتقد أن الفكر والعمل لا انفصام بينهما، فالعمل هو الذي يكشف عما وراءه من فكرة وعقيدة، وهي تتجلّى فيه. كل امرئ يعمل على وفق ما يفكر، وعمل كل امرئ يحكي عن عقيدته.

لذلك فإن جذور المواقف السياسية الخطأ والمتناقضة والمتلونة التي يتخذها الوهابيون ينبغي أن نبحث عنها في عقائدهم المنحرفة وأفكارهم غير الصحيحة.

نأمل أن تكون هـذه الخدمة البسيطـة، مقبولة عندالله وعند أوليائه الكرام عليهم السلام، وأن تنفع العقلاء والباحثين عن الحقيقة، وأن تؤدي عملياً الى المزيد من الوحدة بين مسلمي العـالم، وإلى خيبة مؤامرات المستعمرين، وإضاءة أذهان المسلمين، وعشاق انتصار الاسلام، والمتطلعين إلى مجده وعظمته، فما كان لكاتب هذه السطور من هدف غير هذا.

والحمدلله أولاً وآخراً وظاهراً وباطنا.

د. همايون همتي

كلمة بمثابة مدخل إلى البحث

هدفنا في هذه الرسالة هو البحث بتعمُق في الوهابية. في هذا التحقيق الملخص والعَجِل سنتناول باختصار خصائص هذا المذهب وما فيه من مثالب وظاهرات مضرة. فالوهابية تدعي أنها تسعى لإنكار كل لون من ألوان الشرك ، ولهذا فهي لا تجيز الزيارات والتوسل وعرض الحاجة وطلب قضائها من الأنبياء والأولياء، وتمنع زيارة قبورهم و قبور الخاصة والأطهار والا تقياء. إننا سنرد، بمشيئة الله وعونه، على هذه الأمور في الصفحات التالية، وندرسها و نبحث فيها. ولكننا الآن وفي مطلع الكلام نقولها صريحة: إن مزاعم الوهابيين عن مكافحة الشرك قد انقلبت عند التطبيق العملي الى قتل المسلمين والتخريب والهدم وإشعال نيران الفتنة، حتى يمكننا القول بأن هذا السلوك ، بتعاليمه الظاهرية الفظّة والمفرقة، ليس سوى حربة قاتلة بيدالاستعماريين وأعداء الإسلام الألداء الذين يستعملون الوهابية في ميدان السياسة الاستكبارية للحيلولة دون وحدة المسلمين.

لابدّ من القول صراحة أن تعاليم الوهابية الخاطئة والسطحية والمتمسكة بالقشور الظاهرية إنما هي أهم عائق يقف في طريق تحقق هدف المسلمين في الوحدة، وأكبر باعث على اقتتال المسلمين وتشتتهم وتمزق صفوفهم.

إن هذا العداء للمسلمين و مخاصمتهم و اعتبارهم كفّاراً ومشركين، وضرب الإخوة في الايمان و شتمهم وإيذاء هم، يكشف عن ملمح قبيح ورهيب

من ملامح الوهابية التي تظهرها كفرقة هدّامة وفوضوية تحمل شعار الهدم والتخريب والتفرقة والقسوة والوحشية.

إن وضع السيف في رقاب الناس المتدينين الذين يعبدون الله، بحجة أنهم مشركون ويعبدون الأصنام، وهدم قبور رجالات الإسلام والأطهار بدعوى رفع شعار إقامة التوحيد ومحاربة الشرك ، يعتبر من أعمال الوهابيين الشائعة. إن أتباع هذه الفرقة، بدلاً من أن يحاربوا الاستعمار الوحشي المتعطش للدماء، وبدلاً من أن يناضلوا ضد الاستكبار العالمي والقوى الكبرى والناهبين والمجرمين الرسميين الدوليين، يشرعون مخالبهم بوجه إخوانهم في الدين من المسلمين. وبدلاً من أن ينهضوا ضد الظالمين واللصوص العالميين الذين لاهمَّ لهم إلّا القضاء على دين الإسلام المقدس، وإلّا محو تعاليم القرآن، يشمِّرون عن سواعدهم لقتل المسلمين ومحاربتهم بحيث أصبح انتهاك حرمة أموال المسلمين وأرواحهم ونواميسهم، ووصمهم بالكفر و تحقير سائر المسلمين وتكفيرهم، جزءاً من العقائد الأساس لأتباع هذه الفرقة.

إنهم بدلاً من أن يصرخوا بوجه الجزارين والجبارين في التاريخ، يصرخون بوجه المسلمين ويوغلون في تقتيلهم. وبدلاً من أن ينهضوا لمحاربة أعداء الله، نراهم قد نهضوا بكل مالديهم من عِدّة وعُدّة لمحاربة الذين يؤمنون بالله وكتابه ورسوله ويلتزمون الإسلام أشدَّ التزام، فما الذي يريده الاستعمار العالمي غيرهذا؟ لاهدف للاستعمار سوى ضرب الإسلام والقرآن، وسوى محو تعاليم الاسلام الموصلة إلى شاطئ النجاة والرشاد وحل المشكلات، وسوى إلهاء المسلمين بعضٍ ببعض وضرب بعضهم ببعض، والنفخ في الاختلافات وإيجاد التفرقة والخصام لتبديد قواهم. أتراه يهدف إلى غير هذا؟ وهل للوهابية اليوم دور غير تحقيق أهداف الاستعمار هذه وتنفيذ مخططات الاستكبار؟ إن الوهابية اليوم، أرادت أم لم ترد، وشاءت أم لم تشأ، ومع الأسف، تعمل على إدارة طاحونة الاستعمار بكل قواها لتحقيق آماله الشيطانية. إن الاجتهاد في إثارة الخلافات و إيجاد التفرقة بين صفوف المسلمين الذين يجب أن يكونوا يداً واحدة على الكفار والظالمين وأعداء

الله، لا يخلف سوى تقوية الاستعمار العالمي واسناد جبهة الكفر والشرك وهؤلاء الذين عليهم أن يبذلوا كل قواهم في تحقيق تلك الأهداف الاسلامية التحريرية الشريفة، نراهم بدلاً من ذلك يضعون يد الصداقة في أيدي الكفار والمشركين، ويعقدون عهود الأُخوة مع أعداء الاسلام والقرآن ويرجحونهم على إخوتهم في الدين ويحبونهم، ولايرونهم مشركين، بل موحدين، بينما ذلك المسلم الطاهر القلب والمسكين الذي يقف عند قبر رسول الاسلام العظيم (ص) يئن ويتضرع من ظلم أُولئك الأشقياء المجرمين أنفسهم؛ يكون هو المشرك العابد للأصنام! عجباً لزعمهم أن قبر رسول الاسلام المقدس صنم كبير، بينما هم يعتبرون انضواءهم تحت لواء الذل للقوى العظمى المجرمة شرفاً لهم ومدعاة لاعتزازهم ويرون الصداقة مع أعداء الدين مظهراً من مظاهر التوحيد وعبادة الله، ولكن التضرع لقضاء الحاجات عند أعتاب الكرام المقربين العارفين بالله والمؤمنين بالغيب الذين تتصل أسباب قلوبهم بالملكوت الأعلى، هو الشرك وعبادة الاصنام!

لاشك أن هذا لمّا يثير العجب، فلابدّ من القول بأن الاسلام اليوم أيضا غريب ووحيد حتى بين من يدّعون الاسلام، نعم «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً فطوبى للغرباء»!

لقد لبس هؤلاء رداء الإسلام مقلوبا، فلم يُدركوا شيئا من أهداف الاسلام الأصيلة، وإلّا فكيف يمكن لمن يحتمي بأحضان الكفار والمشركين والملحدين أن ينطق باسم التوحيد؟ إن من يعقد أواصر السلام والصداقة مع الظالمين المجرمين، وينشط بكل قواه في ضرب الاسلام والمسلمين، أنّى له أن يدّعي التوحيد والتوحيد في العبادة؟! إنَّ عبادة الهياكل المتعفنة لمحترفي السياسة الدولية والتخضع والانحناء لهم ليس شركا، ولكن التقدم بعرض الحاجات عند اعتاب سيدالمرسلين ورسول رب العالمين ــ صلوات الله عليه وعلى آله الطاهرين ــ هو الشرك ؟! الاستكانة إلى الضعة والهوان والعار لايتعارض مع التوحيد، ولكن زيارة كبار أولياءالله وعرض الحاجة عليهم والاستلهام من أنفاسهم الطاهرة يتعارض مع التوحيد؟! أهذا هو معنى التوحيد في العبادة؟ هل

وضع اليد في أيدي الظالمين ودعاة الكفر لا يقوّض فكرة التوحيد، ولكن التوسل بالشفعاء المقربين، ووسطاء فيوضات الله تعالى، ومظاهر أسمائه وصفاته، هو الذي يضر بفكرة التوحيد؟!

إن الألم ليعتصر قلب الانسان، وإنه «والله يميت القلب» كما يقول الإمام علي (ع) حتى ليحق للدماء أن تفور في قلب كل مؤمن ملتزم! سيأتي الكلام في الصفحات التالية على عقائد الوهابية وأفكارهم المعوجة وانحرافاتهم المبدئية، إلّا أن هناك نقاطاً لابدّ من الإشارة إليها كمقدمة للبحث ولتهيئة ذهن القارئ الكريم للتمعُّن أكثر في أقوالنا التالية والتعمُّق في دراستها.

الاستعمار العالمي واصطناع المذاهب للتفريق

ليس ثمة شك في أن الاستعمار أو الاستكبار لم يبرح يبحث عمّا يمهد له سبل فرض سلطته الشيطانية وتحكمه الأسود، وهو لم يزل يستخدم شعاره القديم «فرّق تسد». وإن من أهم الطرق التي يتحقق بها ذلك هو اختلاق جو فاسد من التكفير والتفسيق في المجتمع. لذلك فالاستعمار يأتي على رأس العوامل المهمة والرئيسة في بعث جو التكفير والتفسيق في المجتمع الاسلامي، وفي إيجاد روح سوء الظن بين الفرق الاسلامية، وإلصاق التهم الباطلة، وبث الافتراءات الكاذبة ضد رجالات الاسلام العظام، وخلق المذاهب المفرقة. ولسنا مبالغين ولا مغالين إن قلنا إن أنجح السبل التي اتبعها الاستعمار من أجل إضعاف قوى المسلمين والقضاء عليها هو سبيل إيجاد الاختلاف والتفرقة واصطناع المذاهب واختلاق الأنبياء!

ولكي نبين الأسباب التي حملت الاستعمار على السير في هذا السبيل، والأهداف التي يتوخاها منه، والعوامل التي استخدمها لتحقيق تلك الأهداف، لابدّ لنا من أن نمهد لذلك بذكر بعض الأمور، ومن ثم نباشر بالدخول إلى موضوعنا الرئيس:

أهداف الاستعمار وما يقف بوجهها

تصطدم القوى الاستعمارية في مساعيها لبسط نفوذها على الدول الضعيفة

من أجل نهب ثرواتها المادية والمعنوية بموانع كبيرة، وما كان من السهل عليها يوماً أن تحتل بلداً لتجد أهله يستقبلونها بالاحضان، فهي، في أضعف الحالات، تواجه في بدء دخولها كثيراً من المشكلات و الصعوبات[1]. ولقد كانت هناك عوامل كثيرة تدفع بالناس للوقوف بوجه القوى الغازية الاستعمارية، كالقومية، واللغة، والثقافة، والدين. وكان لبعض هذه العوامل تأثيرات موقتة في مواجهة قوى الاستعمار، ثم ضعف تأثيرها بالتدريج وفقدت فاعليتها. أما العامل الوحيد الذي استطاع أن يثبت كسدٍ منيع بوجه الأهداف الاستعمارية، فهو قوة نفوذ الدّين بين الناس، وفي المقدمة يأتي الدّين الإسلامي. وهذا أمر لم ينكره الاستعماريون أبداً. فمنذ اليوم الذي وقف فيه ممثل الاستعمار العجوز في مجلس العموم البريطاني، حاملاً القرآن في يده، قائلا: «... على أوروبا أن تعلم أنه مادام هذا الكتاب دليلاً وهادياً يعمل به المسلمون، لن يكون بإمكاننا أن نقيم دعائم سياستنا الاستعمارية في تلك البلاد...» وحتى هذا اليوم الذي بدأت تهب فيه أنسام الاسلام المنعشة، وتبشر إشعاعاته المثيرة بطلوع فجر النصر، تجمع القوى الجبارة الجشعة في العالم كله على القول بأن «الاسلام أضخم سد أمامها وأنه أكبر خطر يتهدد مصالحها» وذلك لأن الاسلام يتميز بخصائص وسمات كل واحدة منها تقف كالجبل في طريق تحقيق الأهداف الاستعمارية، مما تخلو منه الأديان الأخرى. ومن بين تلك الخصائص الخصيصتان التاليتان[2]:

روح تعاليم الاسلام

إن تعاليم الاسلام المحيية وشعائره العبادية السياسية كانت دائما خطراً على الشياطين المستعمرين وأهدافهم المشؤومة، وذلك لأن الإسلام يرفض كل

١ ــ للمزيد من الاطلاع راجع كتاب «چهره استعمارگر چهره استعمارزده» بقلم البير رممي وترجمة هما ناطق، ومؤلفات المجاهد الجزائري، فرانتس فانون.

٢ ــ يتذكر القراء الكرام أنه في اوائل انتصار الثورة الاسلامية العظيمة في ايران، ما فتئ رؤساء البيت (الأسود) وكذلك مغتصبو فلسطين العزيزة يصفون الاسلام بكونه الخطر الكبير الذي يقف في طريق مصالحهم و مراميهم، بل إنهم أعلنوها صريحة ورسمية بأن الخطر الشيوعي لايمكن أن يقاس بخطر الاسلام عليهم.

أشكال الاستعمار والاستغلال، بأي صفة كانت، ويدينها، و يستنهض المسلمين لمحاربة الظلم و الظالمين، ويدعو للنضال لإحقاق العدالة الاجتماعية في جميع الميادين على وجه الأرض، و لتحرير المستضعفين من العبودية والاستعمار، حتى رفع الفتنة والقضاء على مثيري الفتن. وبديهي أن لا يكون هذا النضال لتحرير المسلمين وحدهم فقط، بل هو من أجل خلاص جميع الشعوب المستضعفة المحرومة المعذبة في العالم و تحريرها.

وعلى هذا، يرى الاسلام أنه ملزم بمدّ يد العون و المساعدة إلى جميع حركات التحرر بما يستطيع: «من أصبح ولايهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم» و «من سمع رجلا ينادي: ياللمسلمين! فلم يجبه فليس بمسلم»[3] و «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة»[4] و «الذين يتربصون بكم»[5] و «لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين»[6]. ثم يطرح شعار التمسك بحبل الله باعتباره هو الحاكم المطلق «واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا»[7] «المؤمن أخو المؤمن كالجسد الواحد، ان اشتكى شيئاً منه وجد ألم ذلك في سائر جسده...»[8] «محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم»[9] و المسلمون مسؤولون بعض أمام بعض، ويغضبون بوجه الكفار ولا يدخلون معهم في مساومات، و «إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص»[10].

كان هذا المحتوى دائما وأبداً مصدر إلهام وقوة للمسلمين في مواجهتهم

---

٣ ــ «اصول الكافي» ج ٢ ص ٦٤، «باب الاهتمام بأمور المسلمين».
٤ ــ الممتحنة: ١.
٥ ــ النساء: ١٤١.
٦ ــ آل عمران: ٢٨.
٧ ــ آل عمران: ١٠٣.
٨ ــ «أُصول الكافي» ج ٢ ص ١٦٦، «باب أُخوة المؤمنين بعضهم لبعض».
٩ ــ الفتح: ٢٩.
١٠ ــ الصف: ٤.

للظالمين والمستكبرين على امتداد التاريخ. لقد خلق الاسلام في صدر الاسلام، بمحتواه هذا، كل تلك الحركة والحماسة والإبداع والتغيير والثبات في محاربة الظلم. وإذا ما درسنا النهضات التي وقعت في هذا القرن الأخير، أدركنا بوضوح أكثر دور تعاليم الإسلام المحيية في تحريك الجماهير ضد الظلم والتعسف والاستكبار. فالصديق والعدو يعترفان، مثلا، بالحركة التي بعثها الاسلام في ثورة الشعب الجزائري التحررية التي طردت الاستعمار الفرنسي من البلاد. وفي هذا يقول كاتبان معروفان، هما «كوليت» و «فرانسيس جونسون»:

«لاشك أنه كان للاسلام تأثير كبير في مطالبة الجزائريين بالحرية. ولقد أدرك الجزائريون منذ اليوم الأول من اعتداء الاستعمار عليهم أن هدف الفرنسيين النهائي هو القضاء على الإسلام، وعلى هذا الاساس أدركوا أن الاسلام هو طريق خلاصهم، وأن عليهم جميعا أن يتمسكوا بالإسلام ليتحرروا»[11].

كذلك هي هذه الحركة التي شهدناها في إيران بقيادة العالم المجاهد الفقيه العارف، روح ملحمة الحرية المقدسة، الامام الخميني (دام ظله)، والتي أثمرت حكومة اسلامية باسم الاسلام وبالاستناد إلى تعاليمه الموصلة إلى الحياة السعيدة.

وباختصار، حيثما انتشرت هذه التعاليم وعمل بها شعب أصبح منيعا واستطاع أن يقرر مصيره بنفسه، ولم يعد للاستعمار أو الاستكبار أمل في أن يبسط نفوذه على مثل ذلك الشعب.

الاستعمار يبحث عن وسيلة

وإذ رأى الاستعمار أنه أمام سد منيع لايمكن اختراقه، أخذ بالبحث عن وسيلة ناجعة لمهاجمة هذا السد لتحطيمه و النفوذ إلى ما وراءه، فاستخدم كل ما يملك من قوى و إمكانات لإزالة هذا العائق، وجرّب مختلف السبل لبلوغ هدفه.

---

١١ ـ «مذهبان» ص ٦٤، نقلاً عن «التبشير والاستعمار في البلاد العربية» للدكتور مصطفى خالد. ولمزيد من الاطلاع على دور الاسلام العجيب والعظيم في الحركة البطولية للشعب الجزائري المسلم راجع كتاب: «الجزاير ومردان مجاهد» تأليف حسن صدر، وكذلك مؤلفات الكاتب الثوري الفقيد فرانتس فانون.

ومن تلك السبل ما يلي:

١ ــ المواجهة المباشرة

أ ــ عن طريق المواجهة العسكرية المباشرة، مثل الحروب الصليبية و الاحتلال العسكري للبلدان الاسلامية، كما وقع بالنسبة لليبيا، والعراق، وأفغانستان، وإيران، والجزائر، وغيرها.

ب ــ عن طريق مهاجمة تعاليم الاسلام بتحريفها، وقلب أحكامه، واتهامه والافتراء على مقدساته.

٢ ــ المواجهة غير المباشرة

أ ــ ترويج الفحشاء والفساد بين المسلمين لإضعاف تمسكهم بالدين.

ب ــ إثارة المشاعر القومية والوطنية لتقسيم الأفراد والجماعات إلى فئات متباينة في البلدان الاسلامية.

ج ــ إيجاد التفرقة والاختلاف عن طريق نشر الاتهامات وسوء الظن والتكفير بين المسلمين.

ولا يخفى أنَّ تناول كل حالة من هذه الحالات بشيء من التفصيل والإسهاب يستوجب وقتاً أوسع، وفرصة أفضل، وهذا ما لايتأتّى لنا في هذه العجالة. ولكننا سوف نعالج حالة واحدة منها لمناسبتها مع البحث الذي نتناوله، وهي حالة اصطناع الفرق والمذاهب، ونجعلها مدخلاً إلى بحثنا الأساس بشأن المذهب الوهابي، آملين أن يطالع القراء الأعزاء ببصيرة أعمق و بنظرة أوسع بحوثنا التالية:

الاستعمار واصطناع الفرق

من أهم الخطوات التي خطاها الاستعمار العالمي وما يزالْ يخطوها لتحطيم عظمة المسلمين ومجدهم واتحادهم، وفصم عرى وحدتهم، وخلق جو من الاختلاف والتكفير وسوء الظن بينهم، هي محاولة اصطناع الفرق والمذاهب وصياغة الأديان المزيفة الاستعمارية، لكي يستطيع بلوغ هدفه في إيجاد التفرقة وبث التشتت بين المسلمين، فضلا عن القضاء على الاسلام ومعتقدات المسلمين

الدينية. لقد كانت الاوامر الصادرة من الاستعمار البريطاني العجوز إلى جواسيسه في البلدان الاسلامية على المنوال التالي:

«نشر العقائد والمذاهب المزيفة و المصطنعة في المناطق الاسلامية ضمن خطط مدروسة وواعية و منظمة بحيث يصبح التبشير لها، بعد تقويمها، أرضية فكرية مناسبة بين طبقات الناس. يجب عدم التسرع... ونشر هذه المذاهب الموضوعة والتبشير لها، ويجب أن لا تقتصر على المناطق الشيعية وحدها، بل لابدّ أن تنشر بين الفرق الأربعة من أهل السنّة مذاهب من هذا القبيل المذكور، حتى يمكن إيجاد الاختلافات والمنازعات الشديدة بين هذه الفرق، بحيث تدعي كل فرقة أنها هي التي تمثل الاسلام الصحيح، وأن الآخرين مرتدون وكفار يجب قتلهم...»[١٢].

واستناداً إلى هذه الأوامر، أخذ الجواسيس يدرسون بدقة ويتعرفون على المواقع الاجتماعية والسياسية في المجتمعات الاسلامية واتجاهاتها المتطرفة، وراحوا يخلقون الفرق المطلوبة لتحقيق أهداف أسيادهم الاستعماريين. وبديهي أن المستعمرين لم يقوموا بذلك بصورة مباشرة أبداً، بل كانوا لتنفيذه يبحثون عن أشخاص لا يتمتعون بقوة في الايمان والتقوى، وتكمن فيهم ميول متباينة واتجاهات مختلفة، فكان الاستعمار يغدق على هؤلاء الإعانات المادية والمعنوية ويحثهم على تأسيس الفرق المختلفة. وكمثال على ذلك نشير هنا إلى فرقتين اثنتين تناسبان الموضوع الذي نعالجه:

الفرقة الشيخية

عندما كان العراق مركزاً للحوزات العلمية، صمم الاستعمار، من أجل الوصول إلى أهدافه، على اصطناع الفرق، فاختلق اتجاهين على طرفي نقيض من الإفراط والتفريط، الأول بصورة فرقة شيعية متطرفة فعّالة في العراق، والثاني

---

١٢ ــ «مذكرات همفر» الفقرة ٦ ص ٨٠. وهذا الكتاب هو مذكرات الجاسوس الانجليزي مستر همفر عن ظهور الوهابية، نوصي القراء بمطالعته.

بصورة فرقة سنية متطرفة في الحجاز. الأولى أطلق عليها فيما بعد اسم «الشيخية» أنشأها شخص اسمه الشيخ أحمد الأحسائي وتلميذه السيد كاظم الرشتي. قامت هذه الفرقة برفع مقام الأئمة (ع) إلى حد التأليه، وطرحت كثيراً من الأفكار المغالية على هذا الصعيد. وهي فضلا عن تمهيد الطريق أمام الفرقة المتطرفة الأخرى «الوهابية» لتوجيه الاتهامات إلى الشيعة وتكفيرهم في قوالب متعصبة متحجرة وجافة، دفاعاً فجّاً عن النصوص الاسلامية، حاربت الأفكار العقلانية في الفلسفة الاسلامية، فكفّرت كبار علماء الشيعة، مثل الملا صدرا، والملا محسن فيض الكاشاني[13].

لم يكن الشيخ أحمد الاحسائي قد درس الفلسفة، ولا يعرف شيئاً من العلوم العقلية. فأراد أن يتعرف على الفلسفة والعرفان في الاسلام، فراح يطالع كتباً في ذلك من دون إرشاد استاذ، فلا هو أدرك هذا ولا هو فهم تلك، ولكنه تصور نفسه رجلاً متبحراً في هذا الفن، وراح يضع الأسس لبعض المعتقدات، وأخذ يشتم في كتبه كبار فلاسفة الاسلام، كالملا صدرا الشيرازي، وعرفاء الاسلام، مثل محيي الدين بن العربي، بل إنه تجاوز ذلك إلى شتم أشخاص مجمع على احترامهم في عالم التفسير، مثل الملا محسن فيض الكاشاني، ونسب إلى هؤلاء الكثير من الافتراءات. فوصف محيي الدين بن العربي بأنه «مميت الدين» ووصف كتابه «الفتوحات» بـ«الحتوفات» واعتبره كافراً و ملحداً، وقال عن كتاباته: إنها هراء. وعن فيض الكاشاني قال: إنه من أهل الغي والضلال، وأطلق عليه اسم «مسيء» بدل «محسن» و قال: إن هؤلاء مخالفون لطريقة أهل بيت العصمة الذين «أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا» ووصف نفسه بأنه من أهل «الكشف» و «الشهود والمعاينة» وأنه يسير على هدى طريقة أهل بيت العصمة والطهارة. وخلال افتراءاته غير الصحيحة ينوّه بأُمور يدرك منها كل

---

١٣ ـــ «قصص العلماء» ص ٥٢ ـــ ٥٣.

إنسان عاقل و مطّلع على العلوم الإلهية أنه لايفهمها ولا يعرف عنها شيئا[14].

على الرغم من أن نشاط هذه الفرقة كان في العراق، الذي كان يومئذ جزءاً من الدولة العثمانية، التي كانت نفسها سنية المذهب ومتعصبة، مع ذلك فهذه الحكومة لم تشمل الشيخية بما كانت تحدد به نشاط علماء الشيعة، بل منحتهم حرية العمل أيضا، وذلك لأن الذي يهم الاستعمار وأياديه هو بث التفرقة بين صفوف الأُمة الاسلامية، والقضاء على أقطاب المقاومة فيها، بأية وسيلة كانت، وعلى يد أيِّ شخص كان.

الفرقة الوهابية

وبأزاء الشيخية، خلق الاستعمار فرقة سنية متطرفة باسم «الوهابية». لقد عثر الانجليز في محمدبن عبدالوهاب على صفات منها حب الجاه، والضعف الأخلاقي، والأفكار المتطرفة، فأدركوا أنه الشخص المناسب لتأسيس الفرقة التي يريدون. وهكذا راحوا يرافقونه خطوة بعد خطوة، حتى وجدوا أن الفرصة مناسبة، فأوعزوا إليه أن يعلن ميلاد المذهب الجديد. وبعد ذلك أمروه بالاتفاق مع عميل معروف آخر من عملاء الاستعمار الانجليزي العجوز، وهو سعودبن عبدالعزيز، وهيأوا لهما الإمكانات اللازمة لاجتذاب الأتباع. وفي غضون القيام بما عهد إليهما يقعان تقتيلاً في الحجاج الشيعة، بل إن كل من لم يتقبل دينهم الجديد، شيعيا كان أم سنيا، كان مصيره القتل والنهب. كل من كان يعتقد بزيارة الحرم النبوي الشريف(ص) والأئمة(ع) يعاملونه على أنه «مشرك» و «كافر».

وأخيراً استند الوهابيون إلى كتاب «شرح الزيارة» الذي كان قد وضعه الشيخ أحمد الأحسائي، فغالى فيه بمقام الأئمة(ع)، وأجاز فيه لعن الخلفاء الثلاثة وسبهم، فاستصدروا من بعض علماء أهل السنة فتوى بجواز قتل الشيعة. وعلى الرغم من أن العراق جزء من الدولة العثمانية، فقد أعطتهم الحكومة العثمانية الحرية في الإغارة من الحجاز على العتبات المقدسة والاعتداء على حرمة مراقد

١٤ــ «إمام شناسي» للسيد محمدحسين الطهراني، ج ٥ ص ١٨٤.

الأئمة المعصومين (ع)، وقتلوا الناس وارتكبوا أعمالا وحشية، من ذلك أنهم قتلوا العديد من علماء الشيعة مع أنهم كانوا من معارضي الشيخية ومخالفيهم.

ومما يثير العجب في حملة الإغارة وتقتيل العلماء هو بقاء دار السيد كاظم الرشتي، تلميذ الشيخ أحمد الاحسائي وخليفته ومروج كتابه المذكور، مصوناً لم يمسسه أي أذى، بل أعلنوا بيته حرما آمنا لمن دخله!

تقوم مبادئ الوهابية على أساس من تكفير المذاهب الاسلامية، وبثّ التفرقة بين المسلمين، ومحو آثار رسالة الاسلام الروحية، والتوافق مع الجبّارين الاستعماريين. واليوم في الحجاز، موطن هذه الفرقة، توجه الاتهامات بالكفر والشرك بكل سهولة، وفي مراسم الحج يسمع الانسان أكثر ما يسمع من رجال الأمر بالمعروف ألفاظاً مثل «مشرك، كافر...». وقد ازدادت في الوقت الحاضر نشاطات هذه الفرقة الاستعمارية، ففي كل يوم يصدر عنهم كتاب أو مقال يتهجمون فيه على المقدسات الاسلامية، ويصرف عليه آل سعود مبالغ طائلة من بيع ثروة البلاد النفطية، انصياعا لأوامر أسيادهم في منع وحدة المسلمين وبثّ الفرقة بينهم وتكفيرهم وتفسيق بعضهم بعضا[15].

كلا المذهبين، الوهابي والشيخي، قاما على أساس من فكر غلط، فأثارا الفتن، وأراقا الدماء، وقتلا المسلمين. فمحمد بن عبدالوهاب أقام دعوته على أساس من رؤى (ابن تيمية) ونواياه. وكان هذا من عشاق (ابن تومرت) ـــ الذي ادعى أنه المهدي في شمال أفريقيا وسادت أفكاره مدة قرنين أجزاءً من أسبانيا والجزائر وتونس والمغرب، ولقب بمهدي الموحدين ـــ ثم تعاون مع (محمد سعود)، وراح سيفاهما وأسياف أتباعهما تقطر دما، وحيثما اتجها جرت الدماء وسمّوا المسلمين بالكفرة، وقتلوا كل من لم يطعهم ويؤيدهم. لقد كانت فتنة الوهابية فتنة كبيرة و عجيبة حقا، ممّا لم يستطع عالم الاسلام أن يغطي خسائرها حتى اليوم[16].

---

١٥ ـــ مقتبس من مجلة «حوزه» العدد ١٦ لسنة ١٣٦٥ هـ. ش. بتصرّف.

١٦ ـــ «إمام شناسى» ج ٥ ص ١٨٣.

إننا في هذا الكتاب سنقوم، بعون الله، بدراسة العقيدة الوهابية و بنقد أفكارها العامة. ولكننا قبل أن نتناول أُصول عقائد هذه الفرقة، ستكون لنا قراءة حول مؤسس المذهب.الوهابي، محمدبن عبدالوهاب.

المصادر الأولى للفكر الوهابي

وقبل ذلك أيضا نرى أن من اللازم إدراج بضعة أسطر لتعريف عدد من أساتذة مؤسس الوهابية ومصادر إلهامه.

نبدأ بابن تيمية باعتباره الشخصية المعروفة التي اقترن اسمها عند الوهابيين باسم مؤسس الوهابية، محمدبن عبدالوهاب.

ابن تيمية

جاء في ما كتب عن محمدابن عبدالوهاب أنه أُولع في صغره ولعاً شديداً بقراءة كتب التفسير والحديث والعقائد، و يخص باهتمامه كتب شيخ الاسلام ابن تيمية وابن القيّم ويكرر قراءتها[17]. لذلك فإننا نبدأ كلامنا عن ابن تيمية باعتباره استاذ مؤسس الوهابية الفكري وملهمه أفكاره:

هو «تقي الدين أحمدبن تيمية. ولد بحرّان في ١٠ ربيع الاول سنة ٦٦١ هـ، وتوفي بدمشق في ٢٠ ذي القعدة سنة ٧٢٨هـ. كان متكلما وفقيها حنبليا، ومن أسرة اشتهر منها فقيهان معروفان، هما عمه فخر الدين، وجده لأبيه، مجدالدين.

وعلى أثر هجوم المغول اضطر والد ابن تيمية، عبدالحليم، إلى أن يلجأ الى دمشق مصطحبا معه ابن تيمية وإخوته الثلاثة سنة ٦٦٧هـ. وفي دمشق قام والده بإدارة المدرسة (السكرية)، حيث تربي فيها ابن تيمية. وكان من بعض اساتذته (شمس الدين عبدالرحمن المقدسي) الذي تبوأ مركز قاضي قضاة الحنابلة في دمشق على عهد (بيبرس) بعد إصلاح الجهاز القضائي في الشام. وخلف ابن تيمية أباه في إدارة المدرسة السكرية، وألقى أول درس له في ٢ محرم ٦٨٣. وفي ١٠ صفر من

---

١٧ ــ «إزالة شبهات» ص ٢٠.

السنة التالية ٦٨٤هـ باشر بتدريس تفسير القرآن في المسجد الأموي بدمشق. وفي أواخر سنة ٦٩١هـ حج الى بيت الله، وعاد من الحج الى دمشق في ٦٩٢هـ، وقد صحب معه المادة اللازمة لتأليف كتابه في «مناسك الحج» الذي فند فيه بعض البدع في مناسك الحج.

وكان أول دخول ابن تيمية في معترك الحياة السياسية سنة ٦٩٣هـ في قضية رجل مسيحي من أهل السويداء اسمه (عسّاف)، اتهم بأنه قد شتم رسول الله (ص)، فكان عناد ابن تيمية في هذه القضية سببا في إلقائه لأول مرة في سجن (العذراوية)، حيث كتب أول كتبه المهمة بعنوان «الصارم المسلول على شاتم الرسول».

وفي ١٧ شعبان ٦٩٥ هـ بدأ ابن تيمية بالتدريس في المدرسة الحنبلية ـــ أقدم المدارس الحنبلية في دمشق ـــ خلفا لاحد أساتذته المدعو (زين الدين بن المنجي) الذي كان قد مات حديثا.

وفي عهد الملك المنصور لاجين عهد إليه الملك أن يحرض المسلمين على الجهاد فيما كان المنصور يسير بجيشه نحو أرمنستان الصغرى. وفي هذه الأثناء، أي في سنة ٦٩٨، ألف أهم كتبه في أصول العقائد بعنوان «الحموية الكبرى» بطلب من أهل حماة، هاجم فيه الأشاعرة وعلم الكلام، فاتهمه أعداؤه بالتشبيه واستدعي للحضور أمام قاضي دمشق الحنفي، جلال الدين أحمد الرازي، فرفض الحضور بحجة أن السلطان لم يعيّنه للنظر في القضايا العقائدية. بعد ذلك لم يضايقه أحد، سوى في الجلسة الخاصة التي عقدت في دار القاضي الشافعي، إمام الدين عمر القزويني، حيث نوقش كتابه «الحموية الكبرى» ويقال إن أجوبة ابن تيمية كانت مقنعة.

وعند هجوم المغول سنة ٦٩٩ هـ بقيادة (غازان الإيلخاني) وبمعونة الأمير المملوك «قبچق»، كان ابن تيمية في دمشق يحث الناس على المقاومة. وفي السنة نفسها انخرط في جيش المماليك ضد شيعة كسروان الذين اتهموهم بأنهم قد أعانوا الفرنجة والمغول.

وعنـد ظهـور التهديد المغولي مـرة أُخرى سنة ٧٠٠هـ، عهـد إلى ابن تـيمية بـدعوة الناس إلى الجهـاد، وفي جمادى الأُولى من سنـة ٧٠٠هـ رحـل إلى القاهرة يطلب من سلطانها المملوك (محمدبن قلاوون) التـدخل في الدفاع عن الشام. وفي سنة ٧٠٢ هـ عندمـا عاد المغول إلى الهجوم، كان ابن تيمية حاضراً فتح (شتحب) في الرابع مـن رمضان ٧٠٢هـ. وفي هذه المعـركة كان قـد طلب من ابـن تيمـية أن يصدر فتوى تعفي المجاهدين من الصوم.

كانـت السنوات التـاليـة سنـوات صعبة من الجدل والنـقاش بالـنسبـة لابن تـيميـة. ففي سنة ٧٠٤هـ دخـل في نـقاش مع رجـل اسمه (ابـراهيم القطان) متهم باستعمال الحشيش، كما واجه شيخاً آخر يدعى (محمدبن الخباز) اتهم، من بين ما اتهم بـه، بتـخطي حـدود الشـرع والاباحـية. وفى هـذا الوقت صـاحب فـريقـا من الحجازيين الذيـن دخـلوا الى مسجد (نَـرَبُـخ) لتكسير حجر كـان الناس يقدسونه هناك . ومن جهـة أُخرى دخـل في نقاش مـع الفرقة الاتحادية من أتباع ابن العربي، وكـتـب إلى أحـد كبارهم ــ وهـو الشيـخ نصرالدين المنـبـجـي الذي كان مرشداً لبـيـبرس الجاشنـكيرـــ رسـالـة مؤدبة إلاّ أنه انـتـقـد فيهـا رأي ابن العربي في وحدة الوجود نقداً لاذعاً.

وفي أواخـر سـنـة ٧٠٤ هـاشـتـرك في حمـلـة أُخـرى ضـد «الـرافضة» في كسروان، وفي طريـق عودته إلى دمشق هـاجم الفـرقة الأحمدية الـرفاعية التي كان زعيمها متهماً بـالميل إلى المغول. عندئـذ هاجم أعداؤه معتقداته مرة أُخرى، وأثاروا الشكوك حول صحـة أُصول العقائد ممّا جاء في كتابه «الواسطية» الذي كان قد ألفه قبيل وصول المغول إلى دمشق، فعقدوا مجلساً للمناقشة في مقر حاكم دمشق، الأفرم، في يومي ٨و١٢ رجـب سـنـة ٧٠٥هـ. وفي الجلسة الثانـيـة اشـتـرك فيها (صفي الـديـن الهـنـدي) تلـمـيذ «فـخرالـدين الـرازي» صـدر قرارهـم بان كـتـاب «الواسطية» ليس فيه ما يخالف القرآن والسنة.

وبدا كأن القضيـة قد انتهـت، غير أن القاضي الشافعي (ابـن صرصري) تلميذ (محـمود الاصفهاني) جـدد طلب المناقشة، وجلد عدداً من تلامذة ابن تيمية،

وألقي بالمحدث (المزي) في السجن. وعقدت جلسة أُخرى في ٧ شعبان سنة ٧٠٥هـ بأمر السلطان في مقر الحكام، فبُرِّئت ساحة «الواسطية» واستقال (ابن صرصري) من منصبه. وأخيراً استدعي الخصمان إلى القاهرة، فوصلاها في ٢٢ رمضان سنة ٧٠٥هـ. وفي اليوم التالي حضر ابن تيمية مجلساً جديداً في قلعة (ارغ) وحضره أيضا أربعة من كبار قضاة مصر، بالإضافة الى عدد من رجال الدولة. وهناك أُدين ابن تيمية بالتشبيه وحكم عليه بالسجن. وبقي في سجن (ارغ) في القاهرة نحواً من سنة ونصف، أي حتى ٢٦ ربيع الأول سنة ٧٠٧هـ. ثم أُطلق سراحه بتشفع من جانب الأمير (سلار) رقيب (بيبرس)، والأمير (بدوي مهنا بن عيسى)، فكتب باسمهما كتابه «العقيدة التدمرية» في تاريخ غير معروف.

وعلى الرغم من إطلاق سراح ابن تيمية من السجن، إلاّ أنه منع من العودة إلى الشام، وكان يبادر الى إدانة كل بدعة ويعتبرها من الزندقة، وسرعان ما خاصم اثنين من أشهر صوفية مصر المتنفذين، وهما: (عطاءالله) تلميذ (أبي الحسن مرسي) و (كريم الدين الآملي) رئيس دار سعيد السعداء. وفي تظاهرة عامة في شوال سنة ٧٠٧هـ جاء به الناس إلى مجلس (بدرالدين بن جماعة) القاضي الشافعي، فطلب منه القاضي أن يبيِّن رأيه في «التوسّل والاستغاثة». وأُجبر ابن تيمية على الرجوع إلى الشام، ولكنهم مع ذلك ألقوا القبض عليه في القاهرة وسجنوه في سجن القضاة بضعة أشهر.

وعند وصول (بيبرس جاشنگير) إلى السلطة في ٧٠٨ هـ تجددت محنة ابن تيمية. وفي صفر سنة ٧٠٩هـ اقتيد ابن تيمية مخفوراً إلى الاسكندرية حيث بقي تحت المراقبة في أحد أبراج قصر السلطان، ولكنهم سمحوا له باستقبال زواره، وأجازوه أن يؤلف الكتب. وخلال الشهور السبعة التي بقي فيها محجورا عليه في سجن السلطان زاره الكثير من المغاربة الذين كانوا يمرون بمصر، كما أنه ألف عددا من الكتب المهمّة، منها «المفقود» في الرد على «المرشدة» تأليف (ابن تومرت)، وكتاب «الرد على المنطقيين».

وعند عودة (محمد بن قلاوون) إلى السلطة مرة أخرى في بداية شوال من

سنة ٧٠٩ هـ أطلق سراج ابن تيمية من السجن واستقبله في مجلسه في القاهرة، وذلك في ٨ شوال، وبقي فيها مدة ثلاث سنوات. وكان (محمد بن قلاوون، الملك الناصر) يستشيره أحيانا في شؤون الشام. وخلال هذه المدة كان ابن تيمية يلقي دروسا خاصة ويجيب عن الأسئلة التي تلقى عليه. وفي هذه الفترة باشر بإنجاز كتابه في السياسة القضائية باسم «كتاب السياسة الشرعية» فيما بين السنوات ٧١١ و ٧١٤ هـ. وكثير من «الفتاوى المصرية» قد كتب في هذه الفترة أيضا.

وعلى أثر تهديد المغول الجديد ــ الذي سرعان ما تلاشى ــ رحل ابن تيمية إلى الشام، ووصل إلى دمشق في أول ذي القعدة سنة ٧١٢ هـ بعد وقفة قصيرة في بيت المقدس، بينما كان الملك الناصر قد غادر المدينة قبل ذلك بأسبوع بقصد الحج. وعند عودته من الحج إلى دمشق في ١١ محرم ٧١٣ هـ إتخذ تدابير جديدة لإصلاح النظام المالي في هذه المدينة، كما أنه كان في ربيع الثاني من السنة السابقة قد عيّن (الامير تنكز) حاكما عليها.

أمضى ابن تيمية السنوات الخمس عشرة الأخيرة من حياته تحت حكم هذا الحاكم، وقد عُيّن رئيسا لإحدى المدارس، حيث كان اتباعه ينظرون إليه كمجتهد مستقل. خلال هذه الفترة كان أحد أبرز تلامذته (ابن قيّم الجوزية) الذي بذل أقصى جهده في نشر أفكار ابن تيمية وعقائده، فنال من ذلك البلاء كأستاذه. كانت العلاقات بين الأشاعرة والحنابلة متوترة، والدليل على ذلك تلك الحادثة التي وقعت في محرم من سنة ٧١٦ هـ ممّا أثارت الاختلافات العقائدية بين المذهبين. في أواخر سنة ٧١٦ وفي الشهور التالية تدخل ابن تيمية في قضية (حميضة) أمير مكة الذي كان قد اتفق مع السلطان خدابنده الإيلخاني في إيران على اتخاذ سياسة أكثر تساهلا بالنسبة للشيعة في مكة. ويبدو أن ابن تيمية قد ألّف كتابه «منهاج السنة النبوية»[١٨] في هذه الفترة، وهاجم فيه العلامة الحلّي.

---

١٨ ــ يورد المحقق الجليل المرحوم العلامة الأميني (ره) صاحب كتاب (الغدير) في ج ٣ ص ١٤٨ بحثاً مسهباً حول كتاب ابن تيمية «منهاج السنة» حيث يقول: كان من الأفضل أن يسمى هذا الكتاب

ومرة أُخرى يحيق به البلاء، ففي سنة ٧١٨ هـ يصل أمر من السلطان يحذّر ابن تيمية من إصدار أي فتوى في «الطلاق» تخالف العقيدة الحنبلية السائدة. كانوا يتصيدون زلّات ابن تيمية الذي كان ينكر صحة الطلاق بالثلاث في جلسة واحدة، ولم يجز الطلاق بالحلف إذا لم يكن الحلف مصحوبا بنية الطلاق فعلاً. وقد عقدت جلستان في ٧١٨ و ٧١٩ برئاسة (تنكز) لمحاكمته بهذا الخصوص. وعقدت الجلسة الثالثة في ٢٠ رجب سنة ٧٢٠، وحكموا على ابن تيمية بالسجن بتهمة عصيان أوامر السلطان. وسرعان ماقبضوا عليه وسجنوه في قلعة دمشق، حيث بقي لفترة تزيد على الخمسة أشهر، ثم أطلق سراحه في العاشر من محرم.

ويشير التاريخ إلى حضوره في السنوات التالية في حوادث تتعلق بالحياة الدينية والسياسية في مصر والشام. في ١٦ شعبان سنة ٧٢٦ أُوقف ابن تيمية مرة اخرى من دون أية محاكمة وجرِّد من حق اصدار الفتوى بأمر من السلطان تُلي على الناس في الجامع الأُموي. وكانوا يأخذون عليه كتابه «زيارة القبور» لأنه كان قد أفتى فيه بحرمة تقديس الأولياء[19]. وسجن معه عدد من تلامذته أيضا، ولكنهم جميعا، باستثناء (ابن قيّم الجوزية) قد أُطلق سراحهم بعد زمن قصير.

باسم «منهاج البدعة» لا «منهاج السنة» وذلك لأنه برمّته يبادر إلى إنكار المسلّمات وتكفير المسلمين، وكل ضلالة وتفكير معوج. انه كتاب يزخر بعدم احترام أهل البيت (ع) وبالسبِّ وتحريف الكلام وإخفاء الحقائق. ولابدّ من التنويه بأن هذا الكتاب هو الأساس الذي تقوم عليه عقائد الوهابيين. يهاجم الكتاب أولا العلامة الحلّي، الفقيه والفيلسوف والمتكلم الشيعي المعروف، وفي ظنه أنه يخطّئ اصول عقائد الشيعة وآراءهم، ولذلك جاء عنوان كتابه «منهاج السنة» ردّاً على كتاب «منهاج الكرامة» للعلاّمة الحلّي. إن أهم مصدر للتعاليم الوهابية وأفكارهم هو هذا الكتاب، وعلى الأخص ما جاء عندهم بخصوص التوسل والشفاعة والزيارة والدعاء، إذ يقال إنهم اقتبسوها من أفكار ابن تيمية.

١٩ ـ سنشير في الصفحات التالية إلى الأخطاء الفكرية عند ابن تيمية فيما يتعلق بالزيارة ومواضيع أُخرى وننقدها حتى يتبيَّن إلى أيِّ مدىً كان «شيخ الاسلام» هذا بعيداً عن معرفة حقائق الاسلام وعقائده ومدى انحرافه عنها. ان زيارة قبور الأولياء ليس لتقديسهم وعبادتهم، فهذا مالا يعتقده حتى المسلم العامي. ولكن الأولياء مقربون إلى الله وهم مرآة يتجلى فيها الله، فزيارتهم ورؤيتهم تزيد الانسان ذكراً لله.

بعد ذلك واجه ابن تيمية خصومة قاضي القضاة المالكي (تقي الدين الاخنائي). وكان خصمه القوي الآخر (علاء الدين القونوي) تلميذ (ابن العربي) الذي ولي منصب قاضي قضاة الشافعية في دمشق بعد أن كان يدير دار سعيد السعداء في القاهرة.

بقي ابن تيمية في سجن القلعة أكثر من سنتين مثابراً على تأليف الكتب وإصدار الفتاوى. بعض الكتب التي بقيت منه يعود تاريخ تأليفها إلى هذه الفترة، وكان قد ألفها لإثبات آرائه، وبخاصة كتاب «معارج الأُصول» حول أُصول الفقه، وكتاب «رفع الملام»، وكتاب «الرد على الاخنائي» حيث هاجم فيه خصمه الاخنائي هجوماً شديداً، و بيّن بإسهاب آراءه في عبادة الأولياء وتقديسهم.

وعلى أثر ذلك شكاه الاخنائي للسلطان، فأمر السلطان في ٩ جمادى الآخرة سنة ٧٢٨هـ بحرمان ابن تيمية من الكتب والورق والقلم. وبعد مضي خمسة أشهر على ذلك توفي ابن تيمية في سجن القعلة، وحضر جنازته جمع غفير من الناس، ودفن في مدافن الصوفية بدمشق، ومايزال قبره موضع احترام أتباعه[٢٠].

يقول (خيرالدين الزركلي) صاحب كتاب «الأعلام» الذي كتبه في فن التراجم، عن ابن تيمية مايلي:

«أبوالعباس، تقي الدين أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن عبدالله بن أبي القاسم الخضر النميري، حرّاني دمشقي حنبلي، معروف بابن تيمية، ولد في حرّان، ورحل إلى دمشق، وأظهر نبوغا عجيباً واشتهر. ثم استدعي إلى مصر بسبب فتوى كان قد أصدرها، وحسده بعضهم. فأُلقي في السجن بعض الوقت، ثم رحل إلى الاسكندرية، و بعد إطلاق سراحه عاد إلى دمشق. وفي سنة ٧٢٠ أُلقي في

---

٢٠ ــ «دانشنامۀ ايران وإسلام» ج٣ ص ٤٦٣. لابدّ من القول بأن ماجاء في هذا الكتاب بشأن بعض الشخصيات مبالغ فيه ويميل الى حسن الظن، بل هو في بعض الأحيان مغرض، حتى انه يدرج أسماء شخصيات منحرفة وخائنة وموالية للغرب ومعادية للدين ومن رجال السياسة الفاسدين، الذين لاهم من علماء الاسلام ولا هم من الشخصيات الايرانية، مثل (كمال أتاتورك). نأمل أن يقوم المسؤولون بتنقيح هذا الكتاب و بذل الجهد في عرضه بشكله الصحيح.

السجن مرة أُخرى، وأخيرا توفي في سجن القلعة بدمشق، وحضر جنازته وشيّعه جمع غفير من الناس. ألف في علوم كثيرة، ودعا إلى الإصلاح الديني. وقد جاء في «الدرر الكامنة» انه كان يدخل مع العلماء في المناظرة والبحث والاستدلال وهو دون العشرين من العمر. ذكروا له نحو ثلاثمئة كتاب. يقول صاحب «فوات الوفيات» ان عدد تآليفه بلغ نحواً من ثلاثمئة كتاب، من جملتها: «السياسة الشرعية» و «الفتاوى» و «الايمان» و «الجمع بين النقل والعقل» و «منهاج السنة» و «الفرقان بين أولياء الله وأولياءالشيطان» و «الواسطة بين الحق والخلق» و «الصارم المسلول على شاتم الرسول» و «مجموعة رسائل» و «نظرية العقد» و «الرد على البكري» و «الرد على الاخنائي» و «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» و «شرح العقيدة الاصفهانية» و «القواعد النورانية الفقهية» و «مجموعة الرسائل والمسائل» و «التوسل والوسيلة» و «نقض المنطق» وعدد من الكتب والرسائل الأُخرى»[٢١].

أتباع ابن تيمية وخصومه كتبوا سيرة حياته، كل فريق من وجهة نظره العقائدية الخاصة، فأثنى عليه بعضهم ومدحوه، متغاضين عن أخطائه وانحرافاته، وأخذ عليه فريق آخر الاعوجاج في تفكيره وبدعه و انحرافاته الفكرية، فعابوا عليه ذلك وذمُّوه.

وممن أثنى عليه وتغاضى عن مثالبه (هنري لاؤست) صاحب كتاب «نظريات شيخ الاسلام ابن تيمية في السياسة والاجتماع» ودعاه بالمجاهد الاسلامي الكبير، وأشاد بدفاعه عن الاسلام، ووقوفه بوجه المغول، وعدّد نشاطاته السياسية والاجتماعية، وأبدى إعجابه بسعة معلوماته وإحاطته العجيبة بعلوم زمانه ومعارفه، ووصفه بأنه ذو روحية مستقلة، يكره التقليد ويتميّز بقوة نقد عظيمة، واعتبره مجاهداً ساهم مساهمة فعالة في الحرب وفي السياسة، وكان يهاجم منطق ارسطو والفلسفة اليونانية لحماية الاسلام[٢٢].

---

٢١ ـ «الأعلام» تأليف خيرالدين الزركلي، ج ١ ص ١٢٤.

٢٢ ـ «نشرية معارف» الدورة الأولى، العدد ٣ ص ٦٧.

ولكن ابن تيمية، في نظرنا، كان يتميز بتعصب شديد وغير منطقي وبجمود صلب في العقائد. وعلى الرغم من إحاطته إحاطة واسعة بأفكار فلاسفة مثل ابن سينا، والفخرالرازي، والسهروردي، ولكنه لم يستطع أبداً سبر اغوار تلك الافكار والتعمق في فهمها.

وابن تيمية، كزملائه في الفكر، مثل ابن القيِّم، وابن بطة، وبربهارى، وابن تومرت، وابن الجوزي، وقع في أسر الظاهر والتفكير السطحي الجامد، فهو شديد السطحية وابتدائي في فكره، بعيد عن المقاييس الفلسفية والمنطقية. ابن تيمة، في رأينا، تبنّى ضرباً من (المادية الدينية اللطيفة) فسقط في ورطة مخيفة هي المادية وعبادة الظاهر. إن من يعرف الفلسفة وله اطلاع على الحكمة الاسلامية والعلوم العقلية، يدرك فوراً، عند قراءة مؤلفات ابن تيمية، أنه لم يشم حتى رائحة المسائل الفلسفية ولم يتجاوز في المنطق مقدماته. جميع الاعتراضات التي رفعها على أهل المنطق لاأساس لها من الصحة. وأقواله حول «الوجود والماهية» و«الذاتي والعرضي» و «التصور والتصديق» و «الحدوالرسم» و «البديهيات العقلية» و «القياس» وكثير من المواضيع الأُخرى، تستند الى فلسفة ضعيفة ومنطق صبياني، وتدل على عدم معرفته بها، و إن أمثال هذه البحوث العميقة والثقيلة غريبة عليه[23]. لذلك فهو يتحرك في قضايا التوحيد والإلٰهيات بخطوات مرتعشة مترنّحة، ويقول، كما يقول الماديون و المعتمدون على الحواس، بتجسيد الباري سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً. فكيف يمكن أن نتوقع من شخص مثل ابن تيمية أن يكون مصونا من المزالق الكبرى والأخطاء الفكرية في الإلٰهيات العميقة والبحوث العقائدية، مع أنه أعلن صراحة عن محاربته الفلاسفة والمتكلمين والمناطقة، ودون أن يظهر شيئا من الكفاءة للقيام بذلك، إلّا بعض المغالطات التي تكشف عن عدم تعمقه وسطحية تفكيره في هذه المسائل. إنه من أشهر خصوم المنطق والفلسفة

---

٢٣ ــ لمزيد من الاطلاع راجع كتاب «متفكران اسلامي در برابر منطق يونان» بقلم مصطفى الحسيني الطباطبائي.

والعرفان في عالم الاسلام، وإنا لانجد بين أمثاله من هو عميق التفكير قوي الحجة، فهم في الغالب لا يدركون مواضيع الفلسفة، بل يحاربون أفكاراً غامضة و مجهولة عندهم ولا يفهمونها.

هنالك بعض السذج الاغرار، ممن لاقدم راسخة لهم في العلوم العقلية والفلسفة والعرفان، يحسبونه مفكراً حرّاً مستقلا في الرأي، يعارض التقليد الأعمى، وعدواً لدوداً لكل أنواع الضلالات والبدع، وأنه متحرر من قيود التقليد. بل وصفه بعض هؤلاء بأنه قدوة النهضات الاسلامية، وأنه مصلح اجتماعي وديني دعا للعودة إلى القرآن، وحارب الفكر اليوناني ومنطق ماوراء الطبيعة لأرسطو[٢٤].

ولكننا نرى أن هذه الأحكام أحادية الجانب ومتطرفة وحسنة الظن جداً. فنحن إذا نظرنا إلى آراء ابن تيمية وأفكاره من منظور إسلامي كلي وشامل، وبخاصة من المنظور الشيعي العميق و وفق مقاييس الفلسفة الإسلامية السامية، لوجدناه رجلاً متمسكا بالظاهر، سطحي التفكير، جامدالفكر، متعصبا، أسير تخيلات واهية، سبّاباً، أنانياً، يتوسل بالسفسطة والمغالطة، وينكر البديهيات والأمور المسلّم بها، لايعترف بقيمة التعقل والتفكير العقلاني، ويستهين بالعقل. وعلى هذا كيف يمكن الزعم بحرية فكره واستقلال رأيه؟ إن من يصدر حكما بجواز ضرب المتكلمين[٢٥] كيف يمكن أن يكون حر التفكير؟ إن من يصم فكرة وحدة الوجود العرفانية الرفيعة ــ لاوحدة الوجود المزيجة من الكفر والحلول والاتحاد ــ بل وحدة الوجود التي يتحدث عنها محققون من أمثال القونوي، وابن العربي، والقيصري، والكاشاني، وابن تركه، والسيدحيدر الآملي، وصدر المتألهين الشيرازي، والعلامة الطباطبائي (قدس الله أسرارهم جميعا)، أقول، إذا وصم شخص وحدة الوجود هذه بأنها كفر ونظرية فرعونية، فهل يكون حرَّ التفكير[٢٦]؟ إن من يصل في أعلى مراحل تفكيره إلى تجسيد الله، أيكون من أهل التعمق

---

٢٤ ــ «تاريخ فلسفة در اسلام» بقلم ميان محمد شريف ج٢ ص٢٨٩.

٢٥ ــ المصدر نفسه، ص ٣١٣.

٢٦ ــ المصدر نفسه، ص ٣١٢.

والتعقل؟

إننا لسنا الآن بصدد الدخول بإسهاب في فكر ابن تيمية المعوج وضلالاته، وإلّا لكان علينا أن نتناول أفكاره في الفقه، والتفسير، والحديث، والتاريخ، والأصول، والفلسفة، والمنطق، والعرفان، بالردِّ واحدة فواحدة، لكي يتضح للجميع أن شيخ الاسلام هذا لايملك من المزايا سوى «كثرة الكتابة» و «الاطالة» و «الثرثرة» دون أن يحل أية مشكلة أو يفك أية عقدة في كل تلك المؤلفات الطويلة العريضة.

عقائد ابن تيمية

إننا لكي نزيد من تعرُّف القارئ الكريم على هذه الشخصية، نستعرض بعضا من آراء ابن تيمية بصورة موجزة حتى يطّلع القراء على السرِّ في أسباب إلقائه مرات عديدة في السجن، وفيما دفع بعلماء الاسلام الى تكفيره، وكذلك لكي يطلعوا على ماهية أفكاره التي وصفوها بأنها إصلاحية(!)، ولماذا أثارت آراؤه كل تلك المعارضة من لدن علماء عصره الذين رفضوها.

التوحيد عند ابن تيمية

يقول ابن تيمية: «إن التوحيد الذي جاء به الأنبياء يتضمن إثبات الألوهية لله وحده، أي أن يشهد العبد بأن لا إله إلّا الله وأن لايعبد إلّا إيّاه، وأن لا يتوكل إلّا عليه، وأن لايحب أحداً أو يعاديه إلّا من أجله، وأن لايعمل عملا إلّا في سبيل مرضاته. هذا هو التوحيد الذي يتضمن كل ما أثبته الله (في القرآن) لنفسه.

ولكن مجرد اعتبار وحدانية الله، أو مجردِ الاعتقاد بأن الله الواحد هو الذي خلق العالم، لا يكون توحيداً. كذلك إذا أقرَّ الانسان بصفات الله واعتبره منزّها من العيوب، ويقرُّ بأن الله هو خالق كل الكائنات، فإنَّ هذا الانسان لايعتبر موحّداً إلّا إذا شهد بأن لا إله إلّا الله، وان الله وحده هو الجدير بالعبادة.

لابدَّ من القول بأن ابن تيمية يعتقد أن التضرُّع والاستغاثة بغير الله، واتخاذالأنبياء والأولياء شفعاء، وزيارة قبور الأنبياء والأئمة والصلحاء، و الصلاة

عند قبورهم، والنذر والقرابين في المقابر، تتعارض كلّها والتوحيد، وتقودُ إلى الشرك . وعليه، فالموحّد عنده؛ هو الذي يطلب كل ما يريد من الله مباشرة، دون أن يجعل من أحد واسطة أو شفيعاً، وأن لا يتوجّه إلى أحد غيرالله[٢٧]».

توسيع دائرة الكفر والشرك

«بعض الأعمال التي يعتبرها عامة المسلمين جائزة، بل ومستحبة، يراها ابن تيمية شركاً وخروجاً عن الدين. من ذلك أنه إذا سافر أحد بقصد زيارة قبر النبي (ص) فحسب، دون أن تكون نيته الاصلية الذهاب إلى مسجد النبي، فإن هذا الشخص يكون قد خرج عن شريعة سيدالمرسلين. وإذا زار قبر النبي أو قبر غيره (وطلب منه قضاء حاجة) وجعله شريكاً لله، فإن ذلك حرام ويعتبر شركاً.

كذلك الذين يتوقعون بعض النفع من القبور ويعتبرونها تدفع البلاء، حكمهم حكم عبدة الأصنام الذين يتصورون الاصنام تضر وتنفع. إن الذين يذهبون للزيارة تكون نواياهم هي نوايا المشركين الذين يطلبون من الأصنام قضاء حاجاتهم، مثلما يطلبها الموحدون من الله. ويقول أيضا: كل من يدعو غيرالله ويذهب إلى غير الله باسم الحج (أي أن يسافر بقصد زيارة القبور) ويدعو الأموات، سواء أكانوا من الأنبياء أم من غيرهم، يكون قد أشرك بالله.

إن دائرة الشرك والكفر عند ابن تيمية أوسع من ذلك، فهو يرى أن من يجاور مسجداً، ولكنه لمشاغل عمله لايستطيع حضور صلاة الجماعة فيه، يكون قد ارتكب إثما يجب حمله على أن يتوب منه، فإذا رفض يكون قتله واجبا[٢٨]».

توضيح ماسبق

«يقول (الشوكاني) وهو من مؤيدي ابن تيمية والدعوة الوهابية: إنَّ من بين الأمور التي وصلتنا من صاحب نجد هو أن من لم يحضر صلاة الجماعة اهدر دمه. وهذا قول يخالف الشريعة.

---

٢٧ ــ «وهابيان» تأليف علي أصغر فقيهي، ص ٥١.

٢٨ ــ المصدر نفسه، ص ٥٢.

كان السلف الصالح وأئمة أهل السنة الأربعة وعامة علماء المذاهب الاسلامية يؤدون صلواتهم الواجبة في بيوتهم في ظروف خاصة، أو يؤدونها خارج المسجد. من ذلك أن مالكاً، إمام الفرقة المالكية، كان يذهب إلى أحد المساجد ويقيم صلاته هناك، ثم ترك الذهاب إلى المسجد وراح يصلي في بيته، واذ عوتب في ذلك، قال: لا أستطيع أن أُبين لكم السبب.

وعندما غضب الخليفة على أحمد بن حنبل، ترك الحضور في المسجد سواء للصلاة ولغير الصلاة.[٢٩]»

«جاء عن ابن تيمية أنه كفَّر كل من يؤخر صلاة الظهر حتى المغرب وصلاة المغرب حتى منتصف الليل، وإن من لايعتبر هذا كفراً حقه أن تضرب عنقه.

والرجل البالغ الذي يمتنع عن أداء احدى الصلوات الخمس، أو يترك أحد واجبات الصلاة المسلَّم بها، يجب حمله على التوبة، فإذا لم يتب وجب قتله.

ويرى ابن تيمية أن القسم بالمخلوقات والنذر لغير الله شرك [٣٠]».

الاعتقاد برؤية الله وإثبات الجهة لذاته سبحانه

«من كتب ابن تيمية المعروفة ــ كماسبق أن قلنا ــ كتاب «منهاج السنة» الذي كتبه في الردّ على كتاب «منهاج الكرامة في إثبات الامامة» للعالم الشيعي الكبير العلّامة الحلّي (قدس سره). يباشر ابن تيمية بذكر اعتقادات الشيعة الواحدة بعد الأُخرى ثم يحاول الردَّ عليها. من ذلك أنه بعد أن يذكر قول العلاّمة بأن الله غير مرئي، ولا يمكن دركه بأيٍّ من الحواس الخمس، بحسب قوله تعالى (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار)، وكذلك بعد ذكر قول العلامة بأن الله ليس في مكان ولا في جهة، يقول: إن جميع المنتسبين الى السنة متفقون على الرؤية، وإن السلف يجمع على أن الله يرى بالعين في الآخرة، ولكنه لايرى في

---

٢٩ ــ المصدر نفسه، ص ٥٤.

٣٠ ــ المصدر نفسه، ص ٥٥.

الدنيا، وهنـاك اختلاف بشأن رسول الله (ص) «هل إنه رأى الله في الدنيا أم لا» وبشأن الآية يقول: قد تكون رؤية من دون إدراك .

يـتـكـلم ابن تيـمـيـة على إثبات الرؤية والجـهـة لله بـكثير من الإسهاب، مستدلا بظواهر الآيات والأخبار. ولإثبات ذلك كتب الرسالة (الحموية)، حيث يقول، من جملة مايـقول: إن جميع النصـوص تدل على أن الله فـوق العرش في أعلى السماء، و أنـه يمكن الإشـارة إلى جهتـه بالأصابع، وأنـه يرى يوم الـقيامة، وأن الله يضحك، وإذا أنكر أحدٌ وجودالله على العرش في أعالي السماوات، وجب حمله على الـتوبة، وإذا لم يـتب وجب ضـرب عـنقه. كما إنـه يقول، بحسب ظاهر الآيات، إن لله أعضاءً وجوارح، غير أن فوقية الله وفوقـية صفاته و أعضائه وجـوارحه لايمكن أن تـقـارن بـفـوقـيـة أعضـاء المخلوقين وجـوارحـهـم. ويـقـول في ذلـك: إن بعض التأويلات التي وردت بهـذا الشـان، مـثـل الآية (الرحمٰن على الـعـرش اسـتوى) فتأويلهم استـوى بمعنى استولى تأويل باطـل، وإن هذه التأويلات ظهرت بالعربية بوساطة المتكلمين بعد ترجمة كتب الضلال من اللغات الأُخرى[٣١]».

نقد مقولة ابن تيمية في رؤية الله رؤية حسية

على الرغم من أن التناقض واضح في مقولة ابن تيمية وفي اضطرابها بحيث إنها لا تستوجب الـرد، ولكننا نـقول إن مقولة ابـن تيمية هـذه تستدعي القـول بأن الله ــ سبـحانه وتعالى ــ جسـم ويشغل حيزا من المكـان، و أنه مركب من أعضاءٍ وجوارح، أي إن التركيـب موجـود في ذات الله. ولاحاجة للقـول بأن كـل مركب، لكـي يـقوم وجوده وبـقـاؤه، يكون بحـاجة إلى أجزائـه. إذن، كـل مركب محتاج، والمحـتاج لايمـكن أن يـكون إلهـا، لأن الله غـيرمحتاج إلى غيره، بـل الآخـرون هم المحتاجون إليه، إن «الله غنيٌّ عن العالمين»[٣٢] و «يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله

---

٣١ ــ المصدر نفسه، ص ٥٥.

٣٢ ــ «آل عمران: ٩٧».

والله هو الغني الحميد»[٣٣].

فهل الذين يستندون الى آيات القرآن لم يقرأوا هذه الآيات التي تشير إلى فقر ما سوى الله، وإلى غناه وعدم حاجته إلى أحد؟ ألا يصف القرآن الله بأنه الغني وأنه الغنى عينه، وأنه غير محتاج وهو عدم الحاجة عينها؟

إننا لن نتطرق الى الفلسفة، إذ إن أمثال ابن تيمية أقصر من أن يصلوا الى مستوى ارتفاع الحكمة العميقة لصدر المتألهين وأفكار فلاسفة الشيعة العظام، كالمحقق الطوسي، والمحقق الداماد، وفيض الكاشاني، والمحقق اللاهيجي، والحكيم السبزواري وعشرات آخرين من الحكماء والعرفاء العظام، فيستوعبوها.

إن الحكمة الاسلامية المتعالية والفلسفة الشيعية العميقة التي أسست على أيدي فلاسفة الشيعة المتضلعين، وسمقت وتفتحت على امتداد السنوات والقرون حتى بلغت أوجها، ترى الله موجوداً مجرّداً، بل هو فوق التجرُّد، ولا متناهٍ، بل فوق اللاّمتناهي عدّة وشدّة ومدّة. وهم يثبتون أن ليست له جهة، ولا حدود، ولامادة، ولا تركيب، سواء أكان تركيباً من حيث الوجود والماهية، أم من حيث المادة والصورة، أم من حيث الجنس والفصل. وهو في ذاته لامثيل له ولا نظير. وما حاجة الله الى جسم؟ اين التراب ورب الأرباب؟ غير أن ابن تيمية يقول: إذا اعتقد انسان بأن الله في أعالي السماوات وفوق عرشه، وأنه منفصل عن خلقه، فهو على حق، سواء أأطلقوا على ذلك اسم المكان أم لم يطلقوا!

من الواضح جداً أن معنى هذا الكلام هو القول بوجود مكان لله، بل إنه قال إن من الممكن الإشارة إلى مكانه بالإصبع. فإذا كان الله يمكن أن يشار إليه إشارة حسية، فلابدّ أن يكون له مكان، وإذا كانت له أعضاء وجوارح ويد وعين ووجه وغير ذلك، فلابدّ أن يكون جسماً، تعالى الله عمّا يقول الظالمون علوّاً كبيراً.

لقد أثبت فلاسفة الشيعة الأجلاء في الفلسفة الإسلامية بأن الله وجود محض بحت بسيط، ولا تركيب له ولا ماهية:

---

٣٣ ــ «فاطر: ١٥».

والحــق مــاهــيــتــه إنّيّــتــه إذ مقتضى العُروض معلوليتُهْ

إنـه وجود صرف و «صرف الوجود» و «حقيقة الحقائق»، وهو في بساطته عينها يضم كمالات كل الأشياء، وليس له «غير» ولا «ثان» من نوعه، وهو مبدأ، وموجد، ومفيض كل موجود، وخالق كل كمال. ما من شيءٍ خارج عن محيط قدرته، «وهو على كل شيء قدير»، و «قد أحاط بكل شيء علما».

كما أثبتوا أن الجسم والجسمانية أنزل مراتب الوجود، والعالم المادي، الذي هو وعاء الأجسام: أنزل وأظلم عوالم الوجود وأحط درجاته.

وقد جاء في الحديث القدسي أن الله قال: «ما نظرت إلى الاجسام مذ خلقتها.» فهذا هو الشأن الوجودي المنحط للمادة والجسم. وبعد هذا كيف يمكن القول بأن الله جسم من الأجسام يتربع فوق العرش وله عين وأطراف وأُذن وأعضاء وجوارح؟ تلك هي المادية في الدين التي تكلّمنا عليها من قبل. وفي اعتقادنا أن ابن تيمية وابن القيّم ورفاقهما في الفكر وجميع الوهابيِّين قد وقعوا في شرك هذه المادية، وكل هذه الضلالات والأفكار الملتوية إنما هي بسبب عدم الغور في تحقيق المسائل العقائدية، والاستهانة بالعقل والتعقل، والابتعاد عن الحكمة الصادقة الايمانية، والفلسفة الإلٰهية الأصيلة.

أصبحت آراء ابن تيمية الفجة هذه، بعد ذلك، القواعد الفكرية التي استند إليها محمدبن عبدالوهاب في اختلاق المذهب الوهابي. لم يأت عبدالوهاب في آرائه بشيء جديد، بل هي مانسجه خيال ابن تيمية وضعها في قوالب لفظية مختلفة وفي عبارات أُخرى.

القول بنزول الله إلى السماء الدنيا

«يقول ابن بطوطة في رحلته في معرض وصفه دمشق: كان في دمشق من الفقهاء الحنابلة تقي الدين ابن تيمية يتكلم في فنون مختلفة، ويعظ أهل دمشق على المنابر. تكلم مرة فأنكره الفقهاء واستقبحوه وشكوه إلى الملك الناصر، ملك مصر، فأمر الملك الناصر بترحيله إلى القاهرة. وفي القاهرة اجتمع القضاة والفقهاء في مجلس الملك الناصر، وابتدأ الكلام شرف الدين الزواوي المالكي، ذاكراً أقوال

ابن تيمية، فأمر الملك الناصر بإلقائه في السجن، حيث بقي بضع سنوات، ألف خلالها كتابا بعنوان «البحر المحيط» في نحو أربعين مجلداً. وبعد إطلاق سراحه من السجن، عاد يرددأقوالاً استنكرها العلماء. كنت (اي ابن بطوطة) يومئذ في دمشق. وفي يوم جمعة صعد ابن تيمية المنبر في المسجد الجامع يعظ الناس، وكنت حاضرا. قال في كلامه إن الله ينزل الى السماء الدنيا (السماء الأُولى) بمثلما أنزل أنا هكذا (ونزل درجة من المنبر). وعند جريان هذا الكلام على لسانه قام فقيه مالكي اسمه (ابن الزهراء) وعارضه مستنكراً قوله، فهاجم الناس الفقيه المذكور وضربوه بالأيدي والأحذية بحيث سقطت العمامة عن رأسه، وظهرت تحتها طاقية من الحرير، فاستهجن الناس على الفقيه استعماله الحرير، واقتادوه إلى (عزالدين ابن مسلم) قاضي الحنابلة، فأمر القاضي بسجنه، ثم عزروه. غير أن فقهاء المالكية والشافعية استقبحوا عمل القاضي الحنبلي، وأوصلوا الأمر إلى ملك الأُمراء (سيف الدين تنغين) فقام سيف الدين بتدوين الحادث مع عدد آخر من أقوال ابن تيمية في رسالة شرعية (عليها تواقيع قضاة عدول) وأرسلها الى الملك الناصر، فأمر الملك بسجن ابن تيمية، فبقي فيه حتى رحل عن هذه الدنيا»[٣٤].

«لقد حاول بعضهم التشكيك في حكاية ابن بطوطة هذه قائلين إنها موضوعة، ولكن ابن تيمية نفسه يشهد بصحتها في كتابه «العقيدة الحموية الكبرى» حيث يقول: إن الله فوق العرش في السماء العليا وينزل منها ألى السماء الدنيا (السماء الأُولى). إن لابن تيمية عدداً من الرسائل يتحدث فيها عن كون الله في السماء وعلى العرش (بصورة حقيقية ومن غير تأويل أو تفسير) وجوابه عن كيفية حمل صفات الله على الظاهر. ومع ذلك فهو قد أنكر التشبيه، وقال إن النساء أيضا يرَين الله في الجنة، وغير ذلك من الامور»[٣٥].

---

٣٤ ــ «وهابيان» ص ٦٤.

٣٥ ــ المصدر نفسه.

القول بعدم لزوم العصمة للأنبياء قبل أن يبعثوا

«في الرد على قول العلامة الحلي بأن الأنبياء معصومون طول أعمارهم من ارتكاب الخطأ والاثم، صغيره و كبيره، وأنه في غير هذه الحالة لايمكن الوثوق بما يقولون، يقول ابن تيمية: ليس من الضروري أن يكون الأنبياء معصومين من الخطأ والإثم قبل أن يبعثهم الله برسالته، ويورد على ذلك بعض الأدلة. كما أنه كان يعتقد بأن الأنبياء كانوا معصومين عند تبليغ أحكام الله فقط، وله في ذلك رسالة»[٣٦].

يتطلب البحث في عصمة الأنبياء مجالاً واسعا لايتسنى لنا هنا، فهو من أوسع البحوث الكلامية والفلسفية العقائدية وأهمها. كما أن المثقفين المستغربين، والذين يطلق عليهم اسم المتنورين وحديثي التفكير قد أثاروا الكثير من الجدل والشبهات حول هذا الموضوع. وكذلك الأشاعرة، والمعتزلة والخوارج، والحشوية، وفرقٌ أُخرى، كل أبدت وجهة نظرها في الأمر، ولكننا لسنا الآن بصدد استعراضها. ولكن حسبنا القول بأن وجهة نظر الشيعة الامامية ــ وهي باعتقادنا أصح النظرات ــ تقول إن النبي يجب أن يكون من أول عمره حتى آخر عمره معصوماً من الخطأ والاثم، وذلك لأن القلوب تطيع أوامر من لم يرتكب منذ صغره أي نوع من المعاصي، كبيرها وصغيرها، ولا ارتكب أخطاءً تنفر الناس منه. وإذا لم تُقبل قلوب الناس على النبي، فلن تطيعه ولن تنفذ أوامره، وبالتالي لن تنال الهداية، وبذلك ينتقض الغرض من بعث الأنبياء. إن الله تعالى ــ بمقتضى ربوبيته ــ يربي ويهدي جميع الكائنات، ويمنح هدايته الخاصة لكل كائن من الكائنات، فإذا لم يستسلم الناس للأنبياء وامتنعوا عن إطاعتهم، و تجنّبوهم، لايمكن أن يهتدوا، ولا تتحقق إرادة الله تعالى. وعلى ذلك، لابدّ أن يكون الأنبياء معصومين من جميع النواحي وفي جميع فترات حياتهم، قبل الوحي وبعده.

المرحوم العلامة الطباطبائي، صاحب تفسير (الميزان) يقول: «العصمة

---

٣٦ ــ المصدر نفسه، ص ٦٦.

على ثلاثة أقسام، أو إن لها مراتب ثلاثا.

المرتبة الأولى: هي أن النبي يجب أن يكون معصوماً من الخطأ في تلقي الوحي.

المرتبة الثانية: هي ان يكون معصوماً من الخطأ في تبليغ الرسالة والقيام بها.

المرتبة الثالثة: هي أن يكون معصوما من كل ما يهتك الحرمة في العبودية، وما يتصور فيه مخالفة لأمر الله. والقرآن يدل على أن الأنبياء(ع) معصومون من جميع النواحي)).

ولأهمية هذا البحث، سوف نورد مزيداً من التوضيح بالاستناد إلى القرآن نفسه باعتباره يحظى بقبول مؤيدي ابن تيمية أيضا، لكي يتبين أن وجهة نظر ابن تيمية ومن يرى رأيه بعيدة كل البعد عن القرآن وغريبة عليه تماما، وأن هؤلاء يحاولون عبثاً أن ينسبوا استنباطاتهم غير الصحيحة إلى القرآن الكريم، وأن يلصقوا به أفكارهم الخاطئة الموهومة. إن القرآن منزه من أمثال ذلك.

قلنا في قضية عصمة الأنبياء انها تتدرج تحت ثلاثة مواضيع:

الاول: هو موضوع تلقي الوحي، أي إن قلب النبي يجب أن لا يرتكب عند تلقي الوحي أي خطأ، وأن يستوعب الوحي كما هو، دون زيادة ولا نقصان، وأن لايتجلّى الوحي في قلب النبي بصورة غير صورته الحقيقية والواقعية.

الثاني: هو موضوع التبليغ وإيصال الوحي، أي إيصال الوحي كما تلقّاه، دون أن يرتكب أيَّ خطأً في أدائه و إيصاله، فهو يجب أن لاينسى الوحي، ولا أن يزيد أو ينقص في الأداء، فيبلّغ الوحيَ إلى الأمة على غير صورته الواقعية.

الثالث: هو موضوع المعصية والإثم، اي يجب على النبي أن لايصدر منه ما يتنافى ومقام العبودية والاحترام ويستوجب المس بالمقام الإلٰهي المقدس، سواء في أقواله أو أفعاله.

يمكن إيجاز هذه المراحل الثلاث في جملة واحدة، وهي أن هناك شيئا من الله في الإنسان المعصوم يصونه عن ارتكاب الخطأ والإثم.

أمّا الخطأ في غير هذه الحالات الثلاث، كالخطأ في القضايا الخارجية، مثل الخطأ في الحواس عند الانسان، أو في إدراك الأمور الاعتبارية او التكوينية من نفع وضرر وصلاح وفساد، فهذا خارج عن بحثنا.

وفي القرآن آيات تدل على تلك المراحل الثلاث من عصمة الأنبياء:

«كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيّين مبشّرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحقّ ليحكم بين الناس فيما آختلفوا فيه وما اختلف فيه إلّا الذين أُوتوه من بعد ما جاءتهم البيّنات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم»[37].

يفهم من هذه الآية أن الهدف من إرسال الانبياء وإنزال الوحي والكتاب هو دعوة الناس إلى الحق، وهدايتهم إلى طريق الحق والصواب في كل أحوال الاختلاف في قول أو في فعل أو في عقيدة. هذا هو هدف الخلقة والغرض من بعثة الأنبياء، والله لايخطئ في الهدف، لقوله:

«لايضل ربي ولا ينسى».[38]

كما أنه يبلغ هدفه دون مانع ولا معيق، حسبما جاء في الآية الكريمة:

«إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا».[39]

وكما جاء في الآية:

«والله غالب على امره».[40]

لذلك أصبح من اللازم لحفظ الوحي في إنزاله وتبليغه وأدائه، أن يكون الأنبياء معصومين من كل خطأ، إذ لو فرضنا، بحسب مفاد هذه الآيات، أن قلب النبي أخطأ في تلقي الوحي وإبلاغه، فلا يكون الهدف من الرسالة قد تحقق، لأن

---

٣٧ ـــ «البقرة: ٢١٣».

٣٨ ـــ «طه: ٥٢».

٣٩ ـــ «الطلاق: ٣».

٤٠ ـــ «يوسف: ٢١».

هدف الرسالة هو الدعوة إلى الحق، كما تقول الآية:

«وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه»[41].

ففي حالة خطأ النبي، إمّا أن يكون الله قد أخطأ في اختيار الرسول وطريقة إنزال الوحي على قلبه؛ وإمّا أن يكون الهدف هو الدعوة إلى الحق فعلاً، ولكنه أخطأ في إنزال الوحي على قلب النبي بحيث لا يقع أيّ تغيير أو تبديل أو نسيان، وهذا يتنافى مع «لايضل ربي ولا ينسى»، وإمّا أنه قصد إلى الدعوة إلى الحق، وإنه لم يخطئ ولم ينس شيئاً في إجراء هذا الأمر، غير أن بعض الموانع الخارجية وقفت في طريق تحقيق أمر الله، وهذا أيضا لايصح بموجب مفاد الآية «إن الله بالغ أمره» أو «والله غالب على أمره».

وعليه، وطبقا لهذه المقدمات، لاشك في أن الله قد عصم الأنبياء من الخطأ والغلط في كيفية تلقي الوحي وتبليغه، وجعل قلوبهم من الصفاء والطهارة بحيث أنها، عند نزول الوحي عليها لم يصبها أي ارتعاش أو ما يوجب تغييراً في كيفية الوحي وواقعيته في قلوبهم، كما لم يصبها أيّ اضطراب أو غموض يمكن أن يبعث على تأويلهم المدركات الواقعية أو تفسيرها بخلاف واقعيتها وحقيقتها.

هذه هي حقيقة العصمة في مرحلتي تلقّي الوحي وإبلاغه.

أمّا المرحلة الثالثة التي تشمل عصمتهم من الإثم، فيمكن بذكر مقدمة أُخرى بيان دلالة الاية المذكورة على ذلك أيضا: إننا إذا قلنا بإمكان ارتكاب النبي إثماً، فإن ذلك يعني أنه قد أباح للآخرين ارتكاب ذلك الإثم، إذ إن العاقل لا يرتكب إلّا مايراه صالحاً ومستحسناً. فإذا ارتكب إثماً في الوقت الذي ينهى الناس عنه، يكون قد أتى ما يوجب التناقض والتهافت، وإنه بفعله وقوله قد أبلغ أمرين متناقضين، فبالقول ينهى الناس عن ارتكاب ذلك الإثم، ولكنه بارتكاب ذلك الإثم بالفعل يكون قد أباحه وأجاز للناس الاقتداء به.

ومن المعلوم أن تبليغ أمرين متناقضين لا يكون تبليغاً بالحق، إذ ان كلاً

---

٤١ ــ «البقرة: ٢١٣».

منهما يكون مبطلاً للآخر. فالله الذي يبعث النبيّين لإبلاغ الناس بالحق لا يأمرهم بالدعوة إلى متناقضين، بل يعصمهم من القيام بغير الحق ومن كل إثم ومعصية، وذلك لأن قيام الأنبياء بتبليغ الرسالة وإيصال الوحي (كما ينبغي) لايمكن أن يتحقق من دون أن يكونوا معصومين.

وبهذا يتضح جليّاً أن الآية المذكورة تدل على عصمة الأنبياء في المراحل الثلاث من تلقّي الوحي وتبليغه في حالة من العصمة.

أمّا البحث في عصمة الأنبياء طوال أعمارهم ــ وهو رأي الشيعة الإمامية ــ فيتطلب مجالا أوسع لا يتيسر لنا في الوقت الحاضر[٤٢].

القسم بغير الله

«يقول ابن تيمية: يجمع العلماء على أن القسم بالمخلوقات المقدسة، كالعرش والكرسي والكعبة والملائكة، غير جائز، ويرى جمهور العلماء، مثل مالك، وأبي حنيفة، وأحمدبن حنبل في أحد قوليه، أن القسم بالنبي (ص) غير جائز أيضا، وأن القسم بالنبي أو بغيره من المخلوقات لا ينعقد (أي ليس له أثر شرعي)، ونقضه لا يوجب الكفارة، إذ إنه قد ثبت في رواية صحيحة أن النبي (ص) قال: لا تقسموا إلّا بالله. وفي رواية أُخرى: من أراد أن يقسم فليقسم بالله، أو فليسكت. وفي رواية أُخرى: القسم الكاذب بالله خير من القسم الصادق بغير الله. وهو يقول: إن القسم بغير الله شرك. وهناك من يستثني القسم برسول الاسلام ويراه جائزاً، وهذا أحد قولي أحمدبن حنل، وهو مقبول عند عدد من أصحابه.

وأجاز آخرون القسم بجميع الأنبياء، غير أن قول الجمهور بعدم جواز القسم بالمخلوقات بدون استثناء هو الأصح.

ابن القيم، تلميذ ابن تيمية المقرب اليه، يقول: ألقسم بغير الله من الذنوب الكبيرة. قال رسول الله (ص): من أقسم بغير الله فقد أشرك به، وعليه فإن

---

٤٢ ــ «امام شناسي» ج١ ص ١٠.

القسم بغيرالله يأتي على رأس الكبائر».[43]

توضيح القسم بغيرالله

«المرحوم العلامة الأمين، صاحب (أعيان الشيعة) يقول: إن قول صاحب الرسالة بأن العلماء مجمعون على نهي القسم بغيرالله إنما هو قول جزاف، لأنه لإثبات زعمه لايذكر سوى أقوال أبي حنيفة وأبي يوسف وابن عبدالسلام والقدوري، وكأن جميع علماء الاسلام في جميع العصور وفي جميع البلدان والمدن ينحصرون بهؤلاء الأربعة. لماذا لم يذكر فتاوى الشافعي ومالك وأحمدبن حنبل؟ ولماذا لم يشر بشيءٍ الى فتاوى علماء لايعرف عددهم سوى الله؟

والحقيقة هي أن القسم بغيرالله لاهو مكروه ولا هو حرام، بل إنه مستحسن ومستحب بموجب أخبار واردة في ذلك. ثم يورد المرحوم الأمين (ره) عدداً من الروايات من كتب الصحاح تؤيد قوله.

وفي موضع آخر يقول: إن القسم بغيرالله، وبالله والرسول (ص) والصحابة والتابعين وجميع المسلمين كان مألوفا منذ القديم حتى اليوم. والله نفسه يقسم في القرآن بكثير من مخلوقاته. وفي أقوال الرسول (ص) والصحابة والتابعين مناسبات كثيرة أقسموا فيها بحياتهم وبأشياء أُخرى مختلفة.

يقول الشعراني عن أحمدبن حنبل إنه إذا أقسم بالنبي (ص) انعقد قسمه، بل القسم بغيرالنبي ايضا يوجب انعقاده»[44].

التوسل بالنبي (ص) والتشفع به وطلب الحاجات

«يقول ابن تيمية في هذه الأُمور: إذا زار أحد قبرالنبي (ص) دون قصد الدعاء والسلام، بل بقصد طلب حاجة من النبي، فيرفع صوته عندالقبرالمقدس بهذا القصد، فإن هذا الشخص يكون قد آذى النبي، وأشرك بالله، وظلم نفسه. ويورد ابن تيمية بعض الاحاديث عن النبي (ص) مفادها قوله: إن من زارني، بعد

---

٤٣ ــ «وهابيان» ص ١١٣.

٤٤ ــ المصدر نفسه، ص ١١٤.

مماتي، كمن زارني في حياتي. ويقول عن هذه الأحاديث إنها موضوعة وضعيفة.

وبشأن التوسل بصاحب القبر يقول: بعض زوار القبور يقصدون من زيارتهم قضاء حوائجهم، وبما أنهم يعتبرون صاحب القبر أقرب إلى الله، فهم يجعلونه واسطتهم إلى الله، وينذرون النذور له ويقدمون له القرابين، ويوقف بعض الزائرين جانباً من أموالهم على صاحب القبر. وفريق آخر من فرط الحب والتشوق لصاحب القبر يشدون الرحال لزيارة قبره ويعتبرون ذلك بمثابة زيارة صاحب القبر في حياته، وإذا ما تحققت زيارتهم للقبر الذي يحبون صاحبه، أحسُّوا في نفوسهم بالراحة والاطمئنان. إن هؤلاء هم أشبه بعبدة الأصنام الذين يعتبرون الأصنام مثل الله»[٤٥].

توضيح التوسل بالنبي (ص)

«إننا بفضل الله وعونه سوف نبحث موضوع التوسل عند نقد أفكار محمدبن عبدالوهاب، ولكننا في هذه العجالة نقول: مسألة التوسل هذه فضلا عن كونها لا تنافي الشرع، فإنها قضية معقولة وتستحسنها الحكمة. يقول السمهودي عن السبكي إن ذكر المحبوب يؤدي أحيانا إلى استجابة الدعاء، وخير من ذلك التعبير عنه بالتوسل، أو الاستغاثة، أو التشفع والتوجه. والإنسان قد يتوسل بمن له حظوة أكبر عند عظيم.

مسألة التوسل هذه تكرر حدوثها مراراً في حياة النبي (ص). من ذلك ماورواه (النسائي) و (الترمذي) عن (عثمان بن حنيف) أن النبي (ص) أمر رجلاً بصيراً أن يقرأ هذا الدعاء: أللّهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمَّدٍ نبي الرحمة. يامحمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي لتقضى لي. أللّهم شفّعه لي.

و (الطبراني) يورد مثل هذا الحديث بشأن رجل في زمن عثمان بن عفان كانت له حاجة، فأشار عليه عثمان بن حنيف أن يقرأ ذلك الدعاء. وفي رواية أُخرى عن البيهقي: إن الناس أصابهم الجفاف في عهد عمر، فتوسلوا بقبر

---

٤٥ ــ المصدر نفسه، ١٢٨.

النبي (ص) حيث وقف رجل أمام القبر وقال: يا رسول الله استسق لأُمتك فإنهم قد هلكوا.

ومالك (صاحب المذهب المالكي) في مناظرة له مع أبي جعفر المنصور في مسجد رسول الله (ص) قال له: قف متوجها إلى قبر النبي (ص) وتشفع به.

وعمر، في سنة جفاف، توسل بالعباس، عم النبي (ص) قائلاً: أللّهم كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا ـــ وفي رواية أخرى قال عمر: إجعلوا العباس وسيلة إلى الله.

وابن تيمية نفسه يقول إن أصحاب النبي (ص) في حياته كانوا يتوسلون به، وعند وفاته راحوا يتوسلون بعمه العباس مثلما كانوا يتوسلون به. وقال أيضا: إن أحمد بن حنبل كان يتوسل في دعائه برسول الله (ص)، وإنه في واحدة من روايتيه أجاز القسم بالنبي والتوسل به.

هذه الروايات وأمثالها المذكورة في الصحاح والكتب المعتبرة عن المذاهب الأربعة تبين أن التوسل برسول الله (ص) وطلب الشفاعة منه، وكذلك التوسل بغير النبي، مثل عمه، كان من سيرة السلف». [٤٦]

وكما قلنا من قبل إن مناقشة جميع أفكار ابن تيمية تطيل البحث، لذلك نكتفي هنا بذكر ما أوردناه من نماذج عن أفكاره الملتوية وانحرافاته العقائدية، ولنا أمل بأن تتاح لنا الفرصة في المستقبل لنتناول في بحث مستفيض آراء ابن تيمية وأفكاره بالنقد والتحليل.

والآن، وبعد أن تعرفنا على شخصية ابن تيمية وآرائه، نباشر بالتعرف على شخصية مشهورة أُخرى تتلمذت على ابن تيمية وكانت من أقرب المقرَّبين إليه وتنشر آراءه، تلك الشخصية التي كانت أفكارها ملهمة محمد بن عبدالوهاب في خلق الوهابية، أعني (ابن قيِّم الجوزية).

---

٤٦ ـــ المصدر نفسه، ١٣٠.

إبن قيّم الجوزية

يقول المحدث القمي، صاحب (المفاتيح)، في كتابه القيّم (الكنى والألقاب): اسمه محمدبن أبي بكر، حنبلي، توفي سنة ٧٥١هـ. وهو صاحب كتاب (زاد المعاد في هدى خيرالعباد)، درس الفقه على ابن تيميه وجاء عن صاحب كتاب (الدرر الكامنة) أنه قال: كان حبُّ ابن تيمية قد استولى على ابن القيّم إلى درجة أنه لم يكن ليخالف له قولاً، بل يكتفي بما يقوله ابن تيمية في جميع المسائل. وهو الذي كان يهذب كتب ابن تيمية وينشر علمه.

كان مقرَّباً من أُمراء مصر الذين كانوا يصلونه، وسجن في القلعة مع ابن تيمية، وقد أُهين وضرب وأُركب على بعير وداروا به في المدينة. وقد فتح موت ابن تيمية باب الفرج له.

ومرة أُخرى أُوذي ابن القيّم بسبب فتاوى ابن تيمية. كان يستفيد من علماء عصره. كما كانوا هم يستفيدون منه». [٤٧]

وجاء في موسوعة (دانشنامه إيران و اسلام) عن ابن قيّم الجوزية مايلي:

«شمس الدين أبوبكر محمدبن أبي بكر الزرعي. متكلم، فقيه حنبلي، ولد في ٧ صفر من سنة ٦٩١هـ في دمشق، وتوفي فيها سنة ٧٥١هـ. كان من أسرة متوسطة الحال، وكان أبوه القيّم المباشر على المدرسة الجوزية حيث كان يجلس فيها للقضاء قاضي قضاة دمشق الحنبلي. بلغ ابن قيّم الجوزية مبلغاً رفيعاً في تحصيل العلوم على عدد من الأساتذة، منهم القاضي سليمان بن حمزة، والشيخ أبوبكر بن (ابن عبدالدائم). ولكنه منذ سنة ٧١٣هـ أخذ يحضر دروس ابن تيمية وأصبح من أبرز تلامذته، ويمكن القول إنه تقبّل جميع أفكار ابن تيمية ومعتقداته، وفي الوقت الذي كان محتفظا فيه بشخصيته الخاصة، أخذ بنشر تلك الأفكار وإذاعتها. كان مثل استاذه متضلّعا في جميع علوم عصره، كالتفسير، والحديث، وأُصول الفقه

---

٤٧ ــ «مشاهير دانشمندان اسلام» ترجمة «الكنى والألقاب» للشيخ عباس القمي، ج ٢ ص ٣٠٨.

وفروعه. ومثل استاذه أيضا، كان شديد المعارضة للطريقة الاتحادية التي كانت تستند إلى تعاليم ابن العربي، ولكنه، بخلاف أُستاذه، كان متأثراً بالصوفية بشدة.

كان مولعاً بكتاب «منازل السائرين» للخواجه عبدالله الأنصاري الذي اشتهر على عهد المماليك. كان أقل من استاذه دخولاً في المناظرات، ولكنه فاقه في الوعظ، وأخيراً بقي اسمه ككاتب فنان. كانت كتاباته السلسة تقف على الطرف المناقض لكتابة استاذه الجافة المرة.

كان ابن القيم قد سجن مع ابن تيمية في القلعة بدمشق في ٧٢٦هـ، ولكنه أُطلق سراحه سنة ٧٢٨هـ بعد وفاة ابن تيمية، وفي سنة ٧٣١حج إلى بيت الله ضمن قافلة الشام برئاسة الأمير عزالدين آيبك، والتي ضمت عدداً كبيراً من الفقهاء والمحدثين.

لم يكن نشاط ابن القيّم واسعا جداً، فقد كانت تحده الحدود والموانع التي وضعتها حكومة المماليك بوجه المذهب الحنبلي الجديد لابن تيمية.

وفي الثاني من رجب سنة ٧٣٦ هـ ألقى أول خطبة له في المسجد الذي بناه (نجم الدين بن خاليخان) في بساتين الغوطة بدمشق خارج باب توما والباب الشرقي.

وفي ٦ صفر سنة ٧٤٣ هـ أعطى أول درس له في المدرسة الصدرية وبقي يلقي دروسه هناك حتى نهاية عمره.

اصطدم مرتين مع (تقي الدين السبكي) قاضي قضاة الشافعية بدمشق، ولكن الأمر لم يصل بينهما إلى حد الاحتراب.

في ٧٤٦ هـ جرت له مناظرة مع السبكي حول قضية سباق في الرمي أو في ركوب الخيل إذا اشترك فيها متسابقان ووضع كل منهما مبلغاً من المال كجائزة للفائز، وفي الوقت نفسه لايشترك المحلل (شخص ثالث يشترك معهما دون أن يضع نقوداً) معهما في السباق، فهل يكون السباق مشروعاً، أم يندرج تحت لعب القمار؟ ابن القيم، الذي كان ينحو نحو استاذه ابن تيمية في أُسلوب تفكيره، قال إن وجود المحلل لا ضرورة له في المسابقة، فاستدعاه القاضي وحمله على اتّباع رأي

الأكثرية.

ولم يلبث أن اشتبك مرة أُخرى مع السبكي في قضايا الطلاق، إذ كان ابن القيم قد أصدر عدة فتاوى في الطلاق بحسب رأي ابن تيمية، فحصل بينهما الخلاف، غير أن الأمير (سيف الدين بن فضل البدوي) أصلح بينهما.

وفي ٢٣ رجب ٧٥١ هـ توفي ابن القيم في دمشق، ودفن الى جوار قبر أُمه في مقبرة الباب الصغير، وخلفه ابنه (جمال الدين عبدالله) في التدريس في المدرسة الصدرية.

آثار ابن القيّم الأدبية والعقائدية كثيرة، ويمكن اعتبار كتابه «مدارج السالكين» ــ وهو شرح لكتاب «منازل السائرين» للخواجه عبدالله الأنصاري ــ أهم كتاب له في التصوف الحنبلي.

وله «أعلام الموقعين» أو دليل المفتي الكامل، في أصول الفقه بحسب آراء ابن تيمية، كما أنه استلهم أُستاذه في السياسة في كتابيه «الحسبة» و «كتاب السياسة الشرعية». وله قصيدة نونية في أُصول الدين يردُّ بها على الفرقة الاتحادية، وكتابه «الصواعق المرسلة» ردٌّ على الجهمية بأسلوب جدلي.

هنالك عدد من الفقهاء والمجتهدين كانوا من تلامذته على عهد المماليك، أو أنهم تأثروا قليلا أو كثيراً بأقواله، منهم المحدث والمؤرخ الشافعي، ابن كثير، وزين الدين بن رجب، آخر ممثل كبير للمذهب الحنبلي في القرون الوسطى، وكذلك ابن حجر العسقلاني.

واليوم لا تجد آثار ابن القيم قراءها بين الوهابيين فحسب، بل بين السلفيين وفي المحافل الاسلامية في شمال أفريقيا أيضا[48].

خيرالدين الزركلي، صاحب «الاعلام» يعتبر ابن القيم من أركان الاصلاح الاسلامي وأحد كبار العلماء ويقول: «لم يكن يتخطى حدود آراء واقوال استاذه ابن تيمية، بل كان يجتهد في تأييد آرائه وإكمالها، ويعمل على نشر

---

٤٨ ــ «دانشنامه ايران و اسلام» ج ٦ ص ٨٠٣.

كتبه، وكان مشتهراً بين الناس بحسن خلقه»[49]. ثم يدرج قائمة بأسماء كتبه.

وفي المقدمة التي كتبها الدكتور نزار رضا لكتاب «أخبار النساء» من كتب ابن القيم، والذي قام بتحقيقه، يورد موجزاً لسيرة حياة ابن القيم وتآليفه، فيقول عنه:

«فقيه حنبلي من أشهر فقهاء الحنبلية. ولد في دمشق سنة ٦١٩هـ. تتلمذ على الامام ابن تيمية وأصبح من أحظى مريديه، يقول بقوله، ويردّد أفكاره وكلماته، مع المشاركة في الرأي والعمل. جارى استاذه في كل أُموره، يدعو له وينشر فتاويه ويناضل في سبيله، حتى أنه سجن معه في قلعة دمشق سنة ٧٢٦هـ. واحتمل العذاب والإهانة من أجله.

ولما توفي استاذه أفرج عنه. فعكف على مؤلفاته تهذيبا وشرحا، وكان دائم المطالعة مولعا بجمع الكتب....»[50].

وفي المقدمة التي كتبها صابر يوسف لكتاب «روضة المحبين ونزهة المشتاقين» لابن القيم، الذي حققه وصححه بنفسه، يقول عنه إنه عالم، فقيه، إمام ديني، حرُّ التفكير، ومن أهل الاجتهاد والاستنباط، ويعارض التقليد الأعمى، وإنه شديد التقيُّد بالكتاب والسنة، ولاينتمي إلى أيٍّ من المذاهب، وإنما هو رجل يسعى لفهم روح كل موضوع وادراك كنهه، ولبلوغ منابع حقائق الأُمور بالتعمق في التفكير فيها. ثم يورد أقوال العلماء فيه والذين اعتبروه صاحب بيان جذّاب، وللغة سلسة، وأنه عالم وفقيه ومفسر ومحدث ونحوي وأُصولي، خدم العلم والدين. ثم يصف الآلام والمعاناة التي تحمّلها مدة حياته، ثم يسرد أسماء أساتذته وتلامذته. فمن أساتذته يذكر: ابن عبدالدائم، وعيسى المطعم، والقاضي تقي الدين بن سليمان، وابن الشيرازي، وشهاب النابلسي، واسماعيل بن مكتوم، وأنه قد

---

٤٩ ــ «الأعلام» خيرالدين الزركلي، ج ٦ ص ٥٦.

٥٠ ــ «اخبار النساء» لابن قيّم الجوزية، تحقيق الدكتور نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، ص ٧.

. اخذ العلوم العربية عن علي بن ابي الفتح، والمجد التونسي، وأخذ الاصول عن صفي الهندي، والفقه عن علي مجدالحرّاني وتقي الدين بن تيمية.

أما قائمة تآليف ابن القيّم فقد أوردها كما يلي: «اعلام الموقعين عن رب العالمين» و «بدائع الفوائد» و «أخبار النساء» و «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان» و «إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان والسكران» و «التبيان في أقسام القرآن» و «جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام» و «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» و «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح» و «زاد المعاد في هدى خير العباد» و «كتاب الصلاة وحكم تاركها» و «عدة الصابرين و ذخيرة الشاكرين» و «الكلم الطيب» و «تفسير المعوّذتين» و «مدارج السالكين» و «الطرق الحكمية» و «الوابل الصيب من الكلم الطيب» و «الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطّلة» و «روضة المحبّين ونزهة المشتاقين».[٥١]

ولكن على الرغم من كل هذا الثناء الذي يسبغه بعض الكتاب المعاصرين على ابن القيم من حيث سعة اطلاعه وكثرة مطالعاته، فإن المتبصر المتعمق في قراءة تآليفه يدرك بكل وضوح أنه، مثل استاذه ابن تيمية، قد وقع في كثير من المزالق و الأخطاء والانحرافات، منها رؤية الله رؤية حسية ــ كما سبق ذكرها ــ فعلى الرغم من وضوح الخطأ في هذا الرأي، فإن ابن القيم يتبنّاه. وهو في قصيدته المطوّلة باسم «الكافية الشافية» يصرح بهذا الرأي الغلط و يشرحه.

على كل حال، ابن القيم، في نظرنا، مثل أُستاذه ومعلمه وإمامه، قد وقع في مزالق الانحراف العقائدي، وقد ابتلي بتلك الأفكار المعوجّة نفسها التي ابتلي بها أُستاذه. إلاّ أننا لسنا بصدد بحث انحرافاته الفكرية.

المذهب الوهابي ومؤسسه

«ينسب مذهب الوهابية الى محمدبن عبدالوهاب بن سليمان الذي ينتهي

---

٥١ ــ «روضة المحبين ونزهة المشتاقين» لابن قيم الجوزية، تصحيح صابر يوسف، طبع المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت.

نسبه إلى وهيب التميمي.

وفي «خلاصة الكلام فى أمراء البلد الحرام» للشيخ أحمدبن زيني دحلان: «ولد محمدبن عبدالوهاب سنة ١١١١ وتوفي سنة ١٢٠٧ فيكون عمره ستا و تسعين سنة. أخذ في اول أمره عن كثير من علماء مكة والمدينة وكانوا يتفرسون فيه الضلال والإضلال، وكان والده عبدالوهاب من العلماء الصالحين، وكان يتفرس فيه ذلك ويذمه كثيراً ويحذر الناس منه، وكذا أخوه سليمان ابن عبدالوهاب أنكر عليه ما أحدثه، وألف كتاباً في الرد عليه. وكان في أول أمره مولعاً بمطالعة أخبار مدعي النبوة كمسيلمة، وسجاح، والأسود العنسي، وطليحة الأسدي، وأمثالهم. وخلف محمدبن عبدالوهاب بعده أربعة أولاد، وهم عبدالله وحسن وحسين وعلي، فقام بالدعوة بعده عبدالله أكبرهم، ولما مات خلّف سليمان وعبدالرحمٰن، وكان سليمان متعصبا تعصبا شديداً فى أمرهم فقتله إبراهيم باشا سنة ١٢٣٣ وقبض على عبدالرحمٰن وأرسله إلى مصر فمات بها. وخلف حسن عبدالرحمٰن وولي قضاء مكة أيام استيلاء الوهابيين عليها. وعمر عبدالرحمٰن حتى قارب المئة. وخلف عبداللطيف. وخلف كل من حسين وعلي أولاداً كثيرين ولم يزل نسلهم باقياً بالدرعية إلى الآن، يسمونهم أولاد الشيخ.

وكان القائم بنصرة محمدبن عبدالوهاب ونشر عقيدته محمدبن سعود ثم ولده عبدالعزيز ثم ولده سعود. انتهى ملخصا.

وسعودبن عبدالعزيز هو الذي غزا العراق ومنع المسلمين من الحج فانقطع الحج في زمانه عدة سنين كما سيأتي.

وقال ملطبرون في جغرافيته المترجمة من رفاعة بك ناظر مدرسة الألسن وقلم الترجمة بمصر، المطبوعة بمصر: أصل المذهب الوهابي أن العرب سيما اهل اليمن تحدثوا بأن راعيا فقيرا اسمه سليمان رأى في منامه كأن شعلة نار خرجت منه وانتشرت في الأرض وصارت تحرق من قابلها. فقصّها على معبّر فعبّرها بأن ولداً له يحدث دولة قوية. فتحققت الرؤيا في حفيده محمدبن عبدالوهاب. فلمّا كبر محمد صار محترما عند أهل بلده بسبب هذه الرؤيا التي لايعلم أنها كانت أم لا، فأول

أمره بيّن مذهبه سرا فاتّبعه جماعة، ثم سافر إلى الشام فلم يتبعه أحد، فرجع إلى بلاد العرب بعد أن غاب عنها ثلاث سنين، وجاء إلى بلاد نجد وأظهر هذا المذهبْ، فتبعه عليه سعود، وكان شهما حازما، وتقوّى كلٌّ منهما بالآخر، فقوّى سعود إمارته من طريق الدين باتّباعه محمدبن عبدالوهاب على مذهبه، وقوّى ابن عبدالوهاب دعوته من طريق السيف باتباع سعود له وانتصاره به فكان سعود الأمير الحاكم وابن عبدالوهاب الرئيس الديني، وصارت ذرية كل منهما تتولى مرتبة سلفهما وبعد أن صار سعود حاكما على قبيلته تغلب على قبيلتين من اليمن، ودانت بهذا المذهب قبائل كبيرة من العرب وجميع أعراب نجد واختاروا مدينة الدرعية قاعدة بلادهم، وهي في الجنوب الشرقي من البصرة. وبعد خمس عشرة سنة اتسعت ولاية سعود وهويطمع في الزيادة. وكان يأخذ ممن يطيعه عشر المواشي والنقود والعروض، بل والأنفس، فياخذ عشر الناس بالقرعة، فجمع أموالا عظيمة وصار جيشه يربو على مئة وعشرين آلف مقاتل. انتهى.

ومرة أُخرى نعود إلى «خلاصة الكلام» الذي جاء فيه: «كان ابتداء ظهور محمدبن عبدالوهاب سنة ١١٤٣ واشتهر أمره بعد الخمسين فأظهر العقيدة الزائفة بنجد وقراها، فقام ينصره محمدبن سعود أمير الدرعية فحمل أهلها على متابعته فتابعوه ومازال يطيعه كثير من أحياء العرب حتى قوي أمره فخافته البادية، وكان يقول لهم إنّما ادعوكم إلى التوحيد وترك الشرك بالله.

وعن كتاب تاريخ نجد لمحمود شكري الآلوسي أن ابن عبدالوهاب نشأ في بلدة العُيينة من بلاد نجد فقرأ على أبيه الفقه على مذهب أحمدبن حنبل، وكان منذ صغره يتكلم بكلمات لا يعرفها المسلمون وينكر عليهم أكثر الذي اتفقوا على فعله، لكنه لم يساعده على ذلك أحد، فسافر من العُيينة إلى مكة المشرفة ثم إلى المدينة فأخذ عن الشيخ عبدالله بن ابراهيم بن سيف، وشدّد النكير على الاستغاثة بالنبي (ص) عند قبره. ثم رحل إلى نجد، ثم إلى البصرة يريد الشام. فلما ورد البصرة أقام فيها مدة وأخذ فيها عن الشيخ محمد المجموعي، وأنكر على أهلها أشياء كثيرة، فأخرجوه منها، فخرج هاربا وبعد عدةتحولات وصل إلى بلدة حريملة من

نجد وكان أبوه بها فلازمه وقرأ عليه وأظهر الإنكار على مسلمي نجد في عقائدهم، فنهاه أبوه، فلم ينته، حتى وقع بينهما نزاع ووقع بينه وبين المسلمين من حريملة جدال كثير، فأقام على ذلك. سنتين حتى توفي أبوه سنة ١١٥٣ فاجترأ على إظهار عقائده والإنكار على المسلمين فيما أطبقوا عليه، وتبعه حثالة من الناس إلى أن غص أهل البلد من مقالاته وهمّوا بقتله، فانتقل من حريملة الى العيينة، ورئيسها يومئذ عثمان بن أحمد بن معمر فأطمعه ابن عبدالوهاب في ملك نجد، وساعده عثمان وأعلن النكير على المسلمين فتبعه بعض اهل العيينة وهدم قبة زيدبن الخطاب التي عند الجبيلة، فعظم أمره، وبلغ خبره سليمان بن محمدبن عزيز الحميدي صاحب الأحساء والقطيف وتوابعها، فأرسل سليمان كتاباً إلى عثمان يأمره فيه بقتله ويهدده على المخالفة، فلم تسعه مخالفته، فأرسل إليه وأمره بالخروج من مملكته. فقال له: إن نصرتني ملكت نجداً. فلم يسمع منه، فخرج إلى الدرعية سنة ١١٦٠ (وهي بلاد مسيلمة الكذاب) وصاحبها يومئذ محمدبن سعود من قبيلة عنيزة فتوسل بامرأة الحاكم إليه وأطمعه في ملك بلاد نجد، فتبعه وبايعه على قتال المسلمين، فكتب إلى أهل نجد و رؤسائهم وقضاتهم يطلب الطاعة، فأطاعه بعضهم، وبعضهم لم يحفل به، فأمر أهل الدرعية بالقتال، فأجابوه وقاتلوا معه أهل نجد والأحساء مراراً كثيرة حتى دخل بعضهم في طاعته طوعا أو كرها، وصارت إمارة نجد جميعها لآل سعود بالقهر والغلبة. ومات ابن عبدالوهاب سنة ١٢٠٦. ثم مات محمدبن سعود فخلفه ولده عبدالعزيز وقام بنصرة هذا المذهب، وقاتل عليه، وبلغت سراياه وعماله أقصى بلاد نجد. ثم مات عبدالعزيز فخلفه ولده سعود وكان أشد من أبيه في التوهُّب فمنع المسلمين عن الحج، وخرج على السلطان، وغالى في تكفير من خالفهم. ثم مات سعود وخلفه ابنه عبدالله. انتهى.

وفي «خلاصة الكلام» إن الوهابيين أرسلوا في دولة الشريف سعودبن سعيدبن زيد المتوفى سنة ١١٦٥ ثلاثين من علمائهم فأمر الشريف أن يناظرهم علماء الحرمين فناظروهم فوجدوا عقائدهم فاسدة، وكتب قاضي الشرع حجة بكفرهم وسجنهم، فسجن بعضهم وفرَّ الباقون. ثم في دولة الشريف أحمد المتوفى سنة

١١٩٥. أرسل أمير الدرعية بعض علمائه فناظرهم علماء مكة وأثبتوا كفرهم، فلم يأذن لهم في الحج. انتهى ملخصاً.

وهذا المذهب وإن كان ظهوره و انتشاره في زمن محمدبن عبدالوهاب في القرن الثاني عشر، إلّا أن بذره قد بذر قبل ذلك من زمن أحمدبن تيمية في القرن السابع وتلميذه ابن قيّم الجوزية وابن عبدالهادي ومن نسج على منوالهم[٥٢].

طريقة الشيخ محمدبن عبدالوهاب

يقول ابن بشر: «عندما استوطن الشيخ محمد الدرعية، كان أهل المدينة أشد ما يكونون جهلا، يتهاونون في أداء الصلاة وأداء الزكاة، ويتقاعسون في إقامة الشعائر الدينية. فبدأ الشيخ بتلقينهم معنى «لا إله إلّا الله» باعتباره نفياً وإثباتا، فجزؤه الأول «لا إله» ينفي جميع المعبودات، وجزؤه الثاني «إلّا الله» يثبت العبادة لله الأحد الذي لا شريك له. ثم علّمهم مبادئ يمكن بوساطتها معرفة الأدلة على وجود الله، كالشمس والقمر والنجوم والليل والنهار. كما علّمهم أن الاسلام يعني التسليم لأوامر الله، والابتعاد عن نواهيه. كذلك علّمهم أركان الاسلام ومعرفة نبي الاسلام (ص) وأسمه ونسبه وكيف بعث وهاجر، وكيف أن دعوة النبي (ص) الأُولى كانت كلمة «لا إله إلّا الله»، كما بيّن لهم موضوع يوم القيامة، وبالغ كثيراً في منع الاستغاثة بالمخلوق، كائناً من كان.

بعد ذلك كتب الشيخ محمد رسائل الى رؤساء نجد وقضاتها، يطلب منهم أن يطاوعوه وينقادوا إليه، فتبعه فريق، ورفض اتّباعه آخرون واستهزأوا بدعوته، وسخروا منه، واتهموه بالجهل وعدم المعرفة. وقال عنه فريق إنه ساحر، ونسب اليه آخرون أُموراً قبيحة.

فدعا الشيخ أهل الدرعية إلى القتال، فحاربوا أهل نجد عدة مرات حتى أخضعوهم لإطاعة الشيخ، وسيطر آل سعود على نجد وقبائلها.

---

٥٢ ــ «كشف الارتياب في أتباع محمدبن عبدالوهاب» للسيد محسن الأمين العاملي، الطبعة الخامسة، ص ٣ ــ ٧.

كانت طريقة الشيخ بالنسبة للغنائم أن يتصرف فيها حسب هواه، حتى أنه كان أحيانا يعطي جميع الغنائم التي تكون من نصيبه، وهي لم تكن قليلة، إلى شخصين أو ثلاثة. كانت الغنائم توضع بأجمعها تحت تصرف الشيخ، وحتى أمير نجد لم يكن لينال شيئا إلّا بأمر من الشيخ. كما أن أمير نجد ما كان يجهز الجيوش ولا يبدي وجهة نظر إلّا بإجازة وأمر من الشيخ.

يقول الآلوسي: لم يسبق لأهل نجد أن اطاعوا أيَّ عالم من علمائهم كما أطاعوا أوامر الشيخ محمد، وهذا أمر عجيب، وأتباعه يعتبرونه حتى اليوم (أيّام الألوسي) إماماً كأحد الأئمة الأربعة (ابي حنيفة، والشافعي، والمالكي، واحمدبن حنبل)، وإذا ما ذكره أحد بسوء قتل.

يقول زيني دحلان: إن من أعمال الشيخ محمد أنه كان يطلب ممن يتبعه أن يحلق رأسه، وهذا ما لم يفعله أيٌّ من طوائف الخوارج وأهل البدع.

وكان السيد عبدالرحمٰن أهدل، مفتي زبير، يقول إنه لاحاجة لتأليف كتاب في الرد على الوهابيين، إذيكفي أن نتذكر حديث رسول الله (ص) الذي قال: «سيماهم التحليق». وقد اتفق أنَّ آمرأة أُجبرت على قبول مذهبه، فوقفت أمام الشيخ وقالت له: إنك عندما تأمر بحلق رأس المرأة، عليك أن تأمر بحلق لحى الرجال أيضا، لأن شعر رأس المراة زينة لها، ولحية الرجل زينة له، فلم يستطع الشيخ أن يرد بشيء»[٥٣].

نهاية ابن عبدالوهاب

بعد أن فتح أتباع الشيخ محمد مدينة الرياض، من مدن نجد، واتسعت أرضهم واستتب الأمن في الطرقات وخضع لهم العتاة، عهد الشيخ بأمور الناس وبالأموال والغنائم إلى عبدالعزيزبن محمدبن سعود، وانصرف هو إلى العبادة والتدريس. غير أن عبدالعزيز وأباه لم يتركاه وشأنه، فكانت جميع الأعمال تتم بأمره وبإشرافه. واستمرت الحال على هذا المنوال حتى مات الشيخ محمد سنة

---

٥٣ ــ «وهابيان» ص ١٥٣.

١٢٠٦هـ)).[٥٤]

مؤلفات محمدبن عبدالوهاب

في مقدمة كتاب ((كشف الشبهات)) وردت قائمة بأسماء مؤلفات الشيخ التالية:

((كشف الشبهات)) و ((تفسير كلمة التوحيد وأدلتها)) و ((تلقين أُصول العقيدة للعامة)) و ((معنى الطاغوت و رؤوس أنواعه)) و ((مختصر سيرة الرسول)) و ((هذه مسائل)) و ((بعض فوائد صلح الحديبية)) و ((ستة مواضع من السيرة)) و ((نواقض الاسلام)) و ((أحكام تمني الموت)) و ((مختصر الانصاف والشرح الكبير)) و ((نصيحة المسلمين)) و ((تفسيربعض سورالقرآن)) و ((الأُصول الثلاثة)) و ((أربع قواعد من قواعد الدين)) و ((ثلاث مسائل)) و ((أحكام الصلاة)) و ((مختصر زاد المعاد)) و ((مختصر تفسير سورة الأنفال)) و ((الأصل الجامع لعبادة الله وحده)) و ((مسائل الجاهلية)) و ((فضل الاسلام)) و ((أربع قواعد تدور الأحكام عليها)) و ((كتاب الكبائر)) و ((أُصول الايمان)) و ((أحاديث في الفتن والحوادث)) و ((الرسائل الشخصية)) و ((كتاب الطهارة)) و ((الخطب المنبرية)) و ((فضائل القرآن)) و ((القواعد الأربع)) و ((ستة أصول عظيمة مفيدة)) و ((شروط الصلاة وأركانها وواجباتها)) و ((مجموع الحديث)) في اربعة مجلدات، و ((مبحث الاجتهاد والخلاف)) و ((الرد على الرافضة)) و ((فتاوى ومسائل)) و ((تفسيرآيات القرآن الكريم)) و ((مفيد المستفيد في حكم تارك التوحيد)) و ((رسالة في توحيد العبادة)) و ((مختصر صحيح البخاري)) و ((آداب المشي الى الصلاة)).[٥٥]

وقيل إن أهم كتبه هو ((كتاب التوحيد)) الذي غيَّر مسير التاريخ ولعب دوراً مهما في تاريخ الاصلاح والتجديد[٥٦]. مع أننا بمطالعة هذا الكتاب نجد أنه

---

٥٤ ــ المصدر نفسه، ص ١٥٥.

٥٥ ــ ((إزالة شبهات)) ترجمة أبي خالد فضل الله عن ((كشف الشبهات)) تأليف محمدبن عبدالوهاب، ص٢٨.

٥٦ ــ المصدر نفسه، مقدمة المترجم.

ليس سوى تكرار لتلك الأقوال التافهة السطحية التي وردت على لسان ابن تيمية وابن القيم، وغير حفنة من التهم والشتائم للمسلمين. إنه لا يتعدّى مجموعة من الانطباعات الساذجة والبدائية عن ظواهر الآيات القرآنية وبعض الأحاديث. تنبئ عن أي بحث عميق وفني دقيق في مضامينها.

صحيح أن هذا الكتاب قد بدّل مسير التاريخ وغيّر اتجاهه، ولكن لابدّ أن نضيف أنه غيّره من السير نحو تجديد مجد المسلمين وعظمتهم وشوكتهم إلى السير نحو الانحطاط والتفرقة، وفناء المسلمين والاقتتال فيما بينهم، وتشتيت شملهم وتفريق جمعهم. كان هذا الكتاب وسائر مؤلفات الشيخ محمد من أفتك الأسلحة ضد اتحاد المسلمين، لتفريقهم وتشتيتهم. والمستعمرون الذين لقّنوا هذا المذهب وهذه الأفكار لابن عبدالوهاب وأملوها عليه، كانوا أكبر المنتفعين بها، ومايزالون.

إنه لمن العجيب أن يراه بعض الكتاب والمفكرون المسلمون ــ كما يراه الاجانب من المستشرقين المغرضين الحاقدين على الاسلام ــ «مجدداً» و «مصلحاً» ويعتبرون دعوته دعوة إصلاحية جاءت تهدي المسلمين، فيمجدونه ويستحسنون آراءه وأفكاره الثورية![57]

إننا قبل أن نباشر بتناول الأُسس العقائدية للوهابية بالنقد والتحليل، وبتقويم آراء محمدبن عبدالوهاب وأفكاره، نشير إلى أهم الاختلافات الموجودة بين دعوة ابن تيمية ودعوة محمد بن عبدالوهاب، ومن ثم نعالج أفكار هذا (المجدد الكبير) الاصلاحية التي لم تثمر سوى الهلاك والتدمير والتفرقة في دنيا الاسلام وبين المسلمين.

في معرض بيان الاختلاف بين دعوة ابن تيمية ومحمدبن عبدالوهاب، يقول محمد أبوزهرة: «لم يضف الوهابيون، في الحقيقة، شيئا على ماقاله ابن تيمية، ولكنهم كانوا أنشط في العمل من ابن تيمية، وحققوا أموراً لم يتعرض لها ابن تيمية، وخلاصة تلك الأُمور هي:

---

٥٧ ــ «زعماء الإصلاح في العصر الحديث» تأليف احمد أمين، ص١٠.

١ ــ لم يكتف الوهابيون بما قاله ابن تيمية عن قصر العبادة على ما أقره الاسلام في القرآن والسنة، بل اعتبروا الأمور العادية خارج منطقة الاسلام، فحرَّموا التدخين، مثلا، وتشددوا في تحريمه، والوهابي العامي يعتبر المدخن كالمشرك . وفي هذا هم أشبه بالخوارج الذين يعتبرون كل عاص كافراً.

٢ ــ في أول الأمر حرَّموا على أنفسهم شرب القهوة وأمثالها، ولكن يبدو انهم قد تساهلوا عليها بعد ذلك .

٣ ــ لم يكتف الوهابيون بالدعوة المجردة، بل حاربوا مخالفيهم بحجة انهم يحاربون البدع، كان قائدهم في الحرب (في أول الامر) محمدبن سعود، جدآل سعود، وصهر محمدبن عبدالوهاب.

٤ ــ كان الوهابيون إذاما استولوا على قرية أو مدينة هدموا ما فيها من الأضرحة والقبور، فأطلق عليهم بعض الكتاب الأوروبيين صفة «هادمي المعابد» وهو قول غير صحيح، لأن المعابد غير القبور، ولكن الظاهر أنهم كانوا يهدمون ايضا المساجد الملحقة بالقبور.

٥ ــ ولم يقنعوا بهذا أيضا، بل هدموا حتى القبور المتميزة ذات العلائم البارزة، وبعد أن استولوا على الحجاز هدموا قبور صحابة الرسول (ص) وساووها بالأرض، ولم يبق منها اليوم سوى بعض الآثار، وهم لايجيزون لمن يزور القبور سوى ان يقول «السلام عليك» لصاحب القبر.

٦ ــ يهتم الوهابيون بأُمور تافهة وينكرونها، مع أنها ليست من عبادة الأصنام، ولا هي تؤدي إلى عبادتها، منها، مثلا، التصوير الذي يذكره علماؤهم في رسائلهم وفتاواهم، غير أن امراءهم لم يلقوا بالاً لتلك الأقوال.

٧ ــ وسع الوهابيون مفهوم «البدعة» بشكل عجيب، حتى أنهم اعتبروا إسدال الستار على الروضة المحمدية الشريفة بدعة، ومنعوا تجديد تلك الأستار، حتى غدت الأستار الموجودة خلقة بالية.

ألحق أن الوهابيين قد أحيوا آراء ابن تيمية، وسعوا في تحقيقها بكل شجاعة، ولكنهم وسعوا معنى البدعة، واعتبروا ما لا علاقة له بالعبادة بدعة، مع

أن البدعة هي مالا أساس له في الدين مطلقا، ولكن العاملين بها يقومون بها بقصد العبادة وللتقرب إلى الله. وعليه، فإن أُموراً مثل تغطية الروضة الشريفة بالأستار ليست بنية العبادة، وإنما للزينة وإضفاء ما يسرُّ الناظرين إليها، كما هي حال الزينات الأُخرى في المسجد النبوي.

والغريب في الأمر أنهم ينكرون أستار الروضة النبوية، ولكنهم لاينكرون تزيين المسجد. والأمر الآخر هو أن العلماء الوهابيين يعتقدون أن أفكارهم وآراءهم هي الصحيحة، وآراء غيرهم هي البعيدة عن الصواب».[٥٨]

---

٥٨ ـــ «وهابيان» ص ١٦٠.



نقد وتحليل لأسس العقيدة الوهابية

سنقوم، بعون الله، في هذا الفصل بنقد زبدة أفكار مؤسس الوهابية وتحليلها، ونقوّم آراءه ونثمنها.

إن المواضيع التي بحثها محمدبن عبدالوهاب[٥٩] كثيرة جداً وتغطي ميداناً واسعاً، بحيث أننا لو أردنا أن نتناول كل واحدة منها بالتحليل لكان علينا أن نؤلف عدة كتب منفصلة ومسهبة. لذلك لا مناص من أن نتناول اسس أفكاره ومختارات من نظرياته بشأن اتجاهاته العقائدية ممّا يكفينا في بيان مدى عمق انحرافاته عن تعاليم الإسلام السامية، متجنبين الدخول في التفاصيل.

إن ما يستلفت النظر أكثر من غيره في كتابات مؤسس الوهابية هو ادّعاؤه بالتوحيد الخالص النقي، والدعوة إليه، و «محاربة كل أنواع الشرك والكفر وعبادة الأصنام» والنهي عنها. من الممكن اعتبار الفكرة المحورية التي يدور حولها المذهب الوهابي فكرة «الدعوة الى التوحيد والنهي عن الشرك وعبادة الأصنام» إذ إن التوحيد والدعوة له هو القاعدة الأساس التي تقوم عليها آراء ابن عبدالوهاب ونظرياته. إلّا أن هؤلاء قد تاهوا عن منفذ الخلاص وضيّعوه، ووقفوا، عمليا، ضد

---

٥٩ ــ معظم هذه البحوث والآراء التي نقلت عن محمدبن عبدالوهاب وردت في كتبه الثلاثة: «التوحيد الذي هو الحق على العبيد» و «كشف الشبهات» و «الرد على الرافضة» الذي يردُّ فيه على مذهب التشيع.

التوحيد والاستسلام لمختلف أنواع الشرك وعبادة الأصنام، وسقطوا في مأزق مروع هو العداء والتخاصم مع أهل التوحيد والمتدينين وعباد الله.

يرى مؤسس الوهابية أن التوحيد هو أصل الأُصول، وأساس الأعمال، وحق الله الواجب على البشر، والهدف الأصلي لدعوات الأنبياء. إننا في هذا نوافقه، ولكننا نقول إن التوحيد الذي يتحدث عنه ليس ذلك التوحيد الذي دعا رسل الله والأديان الحقة الناس إليه، بل هو توحيد جاء وليد استنباطات خاطئة، ونتيجة للانحرافات الفكرية التي أخذت بخناق باني الوهابية، وهو توحيد لاينسجم ولا يتفق مع التوحيد الإلٰهي الذي جاء به الاسلام.

ولكي نلقي مزيداً من الضوء على البحث نقول:

محمد بن عبدالوهاب يقول: «الغلو في الصلاحين، مثلا وثنية. ومن أشكال الغلو عبادة القبور، أو عبادة الله عندها. والنذر لغير الله. واتخاذ شفيع من دونه وثنية». [٦٠]

ويقول ايضا: «والتوحيد. في الألوهية هو أن لايدعى ولا يرجى إلّا الله وحده لا شريك له، ولا يُستغاث بغيره، ولا يذبح لغيره، ولا ينذر لغيره، لاالملك مقرب ولا نبي مرسل. فمن استغاث بغيره فقد كفر، ومن ذبح لغيره فقد كفر، ومن نذر لغيره فقد كفر، وأشباه ذلك». [٦١]

ويقول: «... فالذين يزعم أهل الشرك في زماننا أنهم وسائطهم، الذين يسمونهم الأولون الآلهة، والواسطة هو الإله، فقول الرجل، لا إلٰه إلّا الله إبطال للوسائط». [٦٢]

والظاهر أن ابن عبدالوهاب يتصور نفسه الوحيد الذي يحامي عن «التوحيد» و «أهل التوحيد» وكأن ليس في عالم الموحدين غيره، وأن أحداً غيره

---

٦٠ ــ «الشيخ الامام محمدبن عبدالوهاب» من سلسلة «ديوان النهضة» تأليف ادونيس وخالدة سعيد. دارالعلم للملايين. بيروت. ص٨.

٦١ ــ المصدر نفسه، ص ٦١.

لم يدرك معنى التوحيد، وأنه هو وحده الذي فهم المعنى الحقيقي للتوحيد، وأنه لذلك قام يدفع عن التوحيد ويحافظ عليه من خطر الشرك والكفر والزندقة وعبادة الأصنام، مع أنه في الحقيقة لم يشمَّ حتى رائحة التوحيد الخالص النقي الاسلامي القرآني. وإلاّ لما فتح فاه بمثل هذا الكلام.

يقول محمدبن عبدالوهاب: «ان من نخا نبيا أو ملكا أو ندبه أو استغاث به فقد خرج من الاسلام». [٦٣]

ويقول: «من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم الشفاعة ويتوكل عليهم كفر إجماعاً». [٦٤]

ويقول: «والذبح لغيرالله وثنية، بل هو شرك اكبر». [٦٥]

ومما يستلفت النظر أيضا أن محمدبن عبدالوهاب، مثل استاذيه ومصدري إلهامه الكفري، ابن تيمية وابن القيم، يعتقد بجواز رؤية الله بالعين، ويقول إن المؤمنين يرون الله يوم القيامة بأعينهم هذه التي في رؤوسهم!

إننا لكي نقوِّم آراء محمدبن عبدالوهاب ونحللها لابدَّ لنا من أن نتطرق إلى المواضيع التالية:

١ ــ الشرك والتوحيد وأنواعهما.
٢ ــ فكرة إنكار الوساطة في عالم الوجود.
٣ ــ التوسل بالأنبياء والأولياء.
٤ ــ الشفاعة.

عند بحث هذه المواضيع سوف ينكشف كذب مزاعم الوهابيين وبطلان عقائدهم المنحرفة، وبُعدهم عن تعاليم الاسلام والقرآن النيِّرة المحيية. وسوف يجنبنا ذلك الدخول في تفاصيل أفكارهم.

---

٦٢ ــ المصدر نفسه، ص ٦٠.
٦٣ ــ المصدر نفسه، ص ٦٠.
٦٤ ــ المصدر نفسه، ص ٦٤.
٦٥ ــ المصدر نفسه، ص ٦٨.

شبهة الشرك

«من الشبهات المهمة التي يثيرها الوهابيون في هذا الباب ويعملون بجد على إدخالها في أذهان العامة السذج هي شبهة «الشرك».

والجدير بالذكر أن الفرقة المذكورة قد مددت حدود معنى كلمة «الشرك» بما لاحدود له، بحيث إنهم في أتفه الحالات يبادرون إلى إلصاق هذه التهمة بأكثر عقائد الشيعة التوحيدية، ويصفون الموحدين الحقيقين بالمشركين، بكل صفاقة! كما لو كان وضع المعاني للألفاظ والكلمات قد أُوكل إليهم، وأنهم مطلقو الحرية في التصرف فيها وتطبيق مفاهيمها، في حين أن لكلمة «الشرك» من حيث العرف الشرعي والمتشرعين معنى خاصا ومفهوما متميزا لا يمس أياً من العقائد الحقة للشيعة.

ولتوضيح الامر نشير هنا بصورة إجمالية إلى معنى «التوحيد» ومراتبه المقطوعة بالأدلة العقلية والمستقاة من الآيات القرآنية، ثم نشرع بتوضيح معنى «الشرك» وأقسامه، ثم نشرح عقيدة الشيعة وطراز تفكيرهم في «التوسل» و«التشفع» بأولياء الله والمقرَّبين إلى الله عليهم السلام، لكي يسودَّ وجه الغشاشين».[٦٦]

التوحيد ومراتبه

«التوحيد» الذي يعني في اصطلاح المؤمنين بالله الاعتقاد بوحدة مبدأ الوجود، ينقسم إلى أربع مراتب، أو، بعبارة أفضل، يقوم على أربع قواعد:

١ ــ التوحيد في الذات

وهو الاعتقاد بأن الله جل وعلا ــ الذي حقيقة ذاته هي عين وجوده اللامحدود واللامعلول ــ واجب الوجود، استناداً إلى الأدلة الواردة في شرح الموضوع، وأنه واحد أحد، أي إنه لاشبيه له، ولا نظير، ولا مثيل، إذ إن سائر

---

٦٦ ــ «توسل أز ديدگاه عقل، قرآن و حديث» تأليف السيد محمدضياء آبادي ــ واحد تحقيقات اسلامي / ص٧٣.

الكائنات، طُرّاً وعموما، وجودها عرضي ومحدود ومعلول (ممكن الوجود).

٢ ــ التوحيد في الصفات

وهو الإذعان بأن صفات الله الكمالية (الحياة، والعلم، والقدرة، والإدراك ، الخ...) هي عين ذاته المقدسة، فلا تغاير بين صفاته وذاته، ولا تمايز بين صفاته ذاتها، بل هو الذات الواحد الأحد، وهو الكمال المطلق غير المحدود عينه، وهو العلم والقدرة اللامتناهية عينها.

وفي هذه الصفات أيضا ليس لذاته المقدسة شبيه ولا نظير ولا مثيل. وعليه فإن جميع الصفات الممكنة التي يهبها الله هي مصدر الكمال، وما من كائن غيره، جل جلاله، يملك في «ذاته» صفة الكمال المطلق.

٣ ــ التوحيد في الأفعال

وهو الاعتقاد بأن «الاستقلال» في خلق كل كائن، مهما يكن، منحصر في الله الخالق الأوحد. وعليه، ما من كائن يكون مستقلا في «الوجود» ولا في «الإيجاد».

إن إيجاد كل تأثير وعمل وخصيصة في كل مخلوق هو معلول تلك القدرة أو القوة التي أرادها الله ووضعها في البنية الوجوديةلذلك المخلوق، وهو في كل لحظة قادر على أن يسلبها منه، سواء أكان ذلك «الفاعل» فاعلا لا إرادياً ومضطرا، كالماء والنار والشمس وأمثالها، أم كان فاعلا إراديا ومختاراً، كالإنسان.

فالإنسان، في الوقت الذي يقوم فيه بعمل بإرادته واختياره، تكون تلك الإرادة والمشيئة وذلك الاختيار قائمة بإذن الله وإرادته ومشيئته، وهو ليس «مستقلاً» في أية لحظة من اللحظات في «الوجود» و «الإيجاد».

إن هذا الاعتقاد بالاستقلال أو عدم الاستقلال في «الأفعال» انما هو في غير الله، وهو المقياس الصحيح «للشرك » و «التوحيد».

«فالشرك » يعني الاعتقاد باستقلال غير الله في التأثير والفاعلية. و«التوحيد» في الأفعال يعني الاعتقاد بأن «الاستقلال في الأفعال» منحصر بالله وحده جل وعلا.

وبعبارة أُخرى «التوحيد في الأفعال» يعني اعتبار جميع المخلوقات «فاعلين بإذن» وعدم الاعتقاد بوجود شريك لله في «الاستقلال في الأفعال»، والاعتراف بأن ليس لأي مخلوق أيِّ تأثير ولا أي خصيصة إلاّ بإذن الله وبمشيئته، جل جلاله.

وبناءً على ذلك فإن «التوحيد في الأفعال» لا يعني نفي الأثر والفاعلية وسلبها من سائر المخلوقات، لأن هذا يخالف الواقع والحقيقة، فنحن نشاهد بأعيننا أن لكل مخلوق من المخلوقات أثراً وخصيصة، تقوى وتضعف بحسب القوة أو القدرة التي وهبها الله له، ومهما يكن تقديرنا (سواء أكان الفاعل ارادياً أم لا إراديا) تظهر الأفعال من ذلك المخلوق ويكون مؤثراً في ذلك الأثر.

ليس ثمة شك في أن ما ينبت من الأرض، مثلا، هو النبات الذي قد يكون من خصائصه اللون و الرائحة والإزهار، كما قد تكون صفة إشباع الحيوان والإنسان،و معالجة أمراض المرضى، من أفعال ذلك النبات نفسه، بمثلما أن الأكل، والشرب، واللبس، والقعود، والقيام، والتفكير، والنطق، والكتابة، والحياكة، والبناء، وسائر الأعمال الأُخرى كلها من الآثار وجود الانسان و من أفعاله.

غير أن هذه الأفعال أفعال إرادية اختيارية صدرت عن فاعل مريد ومختار، أمّا الآثار المختلفة للنباتات فهي أفعال لا إرادية صدرت عن فاعل مضطر فاقد للاختيار والإرادة.

وعليه، فإن للكائنات عموما صفة «الفاعلية» والتأثير، لذلك لا يمكن القول بأن «التوحيد في الافعال» يعني سلب «الفاعلية» عن غير الله. بل المعنى الصحيح لهذا «التوحيد في الأفعال» هو سلب «الاستقلال في التأثير» ممّا سوى الله، وهذا مالا يتنافى مع القول بـ«التأثير بالإذن» و «الفاعلية بالتسخير» لسائر المخلوقات. و «الشرك» هو إشراك غير الله في أفعال الله، ولكن لابدّ من التنبه إلى أن المقصود من «أفعال الله» هو «الاستقلال في التأثير» المحصور في الله وحده، وليس له في هذا أيُّ شريك من مخلوقاته. وإلّا فإنَّ كل مخلوق، بقدرما أفاض الله عليه من القدرة، قادر على الفعل وخلق الأثر، لأن المخلوق إذا أذن له خالقه

بالقيام بعمل، فهذا يعني أن الله قد وهبه قوة تكوينية تجعله قادراً على الفعل والتأثير، حتى إلى الحد الذي يكون معه قادراً على الخلق وإحياء الموتى وإماتة الأحياء، وإبراء المرضى، وإعادة الأعمى بصيراً، كما جاء في القرآن الكريم بشأن عيسى بن مريم عليه السلام.

«إذ قال الله ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس... وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني، وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني...[٦٧]»

فهذه الآية تشير بكل وضوح إلى خلق الطير من الطين وإحيائه بالنفخ فيه، وشفاء المصابين بالبرص وبالعمى، وإحياء الأموات النائمين في القبور، من قبل عيسى بن مريم عليه السلام، بإذن الله.

وإنه لمن البديهي أن لا يوصف هذا بأنه اشتراك مع الله، بل يقال عنه إنه القيام بفعل «بإذن» الله! إذ إن ما هو من فعل الله ومختص به إنما هو «الاستقلال في التأثير وفي الخلق»، لا مطلق الإيجاد!

ثم إن الموجودات في العالم لا تصبح، بوجودها، شريكة لله في «الوجود»، وإنما هي قد أصبحت «ذات وجود» بإذن الله، وإن مايختص بالله هو «ذاتية» الوجود، و«الإستقلال» في «الوجود»، لا مجرد الوجود!

نعم، فكما أن الكائنات في العالم ليست شريكة الله في «الوجود»، كذلك هي ليست شريكته في «الإيجاد»، بل إن «وجودها» و «إيجادها» كلاهما «بالإذن»!

نلاحظ في الآية الكريمة أنها تكرر كلمة «بإذني»، وفي الوقت الذي تجعل المسيح (ع) فاعل «خلق الطير» و «إحياء الأموات» و «شفاء المرضى» فإنها تنفي عنه «الاستقلال» في التأثير و «الأصالة» في العمل، وتؤكد أن «الله» وحده هو الفاعل المستقل والمؤثر بالأصالة.

---

٦٧ ــ «المائدة: ١١٠».

وقد جاء هذا المضمون في آية أُخرى على لسان عيسى (ع):

«... أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله...[68]»

٤ ــ التوحيد في العبادة

وهذا يعني الاعتقاد بأن ليس سوى الله من يستحق أن يعبد. و «العبادة» تعني التذلل المصحوب بالتقديس. فيرى الانسانُ اللّهَ وجوداً كاملاً، مطلقا، منزّها عن كل نقيصة، ويرى أن عليه أن يكون في نهاية التذلُل في حضرته.

وهذا اعتقاد طبيعي ينشأ من ثلاثة اعتقادات سابق وجودها في قلب الانسان بالضرورة. فعندما يعتقد الانسان أن الوجود الأصيل، والكمال المطلق، والاستقلال في الإيجاد والتدبير، وإعطاء كل أنواع النعم، ودفع كل أنواع البلاء، ينحصر في ذات الله، مبدأ الوجود، لاشك أنه عندئذ يؤمن بأن من يجب أن يسعى الإنسان في جلب رضاه، وأن يخشى غضبه، ويسلّم له تسليماً كاملاً، ويسجد في حضرته، وأنه لاشيء تجاهه، وهو كل شيء؛ هو الواحد الأحد الذي لا شريك له. كما أن تعظيم الآخرين وإجلالهم يجب أن يكون بإذن من الله ورضاه. وهذا هو في الواقع معنى «لا إله إلاّ الله».

وبتعبير آخر يمكن أن نقول: إن مراتب التوحيد القلبية الثلاث، أقصد التوحيد في الذات، وفي الصفات، وفي العمل، هي من أقسام التوحيد «النظري»، أي إنها «معرفة» و «فكر» و «نظرة».

أما المرتبة الرابعة من التوحيد، وهي «التوحيد في العبادة» فهي التوحيد «العملي» أي هي «العمل» والسلوك والسيرة والكدح إلى مبدأ الوجود والكمال المطلق.

كان هذا شرحا موجزاً لمعنى «التوحيد» و أقسامه وقواعده. وبديهي أن نستنتج أن «الشرك »، مع أخذ ما مرَّ بنظر الاعتبار، هو الطرف النقيض للتوحيد

---

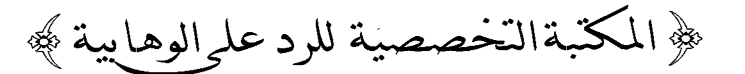
٦٨ ــ «آل عمران: ٤٩».

في كل مرتبة من مراتبه الأربع، أي إن معنى الشرك والمقصود به في مرتبة «الذات»، وفي مرتبة «الصفات» وفي مرتبة «الأفعال» وفي مرتبة «العبادة» قد اتضح إلى حدٍما.

ولكن بما أن موضوع الشرك يرد على نطاق واسع في أقوال الخصم ممّا يثير الشك والشبهة في معناه، فقد رأينا أن نقوم نحن أيضا بإيراد شرح أوفى، وبتحليلٍ أدقّ له لإزالة الشك والشبهة، ومن الله العون، إنه خير ناصر وخير معين[٦٩]».

---

٦٩ ـ «توسل» ص ٧٤.


المكتبة التخصصية للرد على الوهابية

الشرك وأقسامه

«الشرك» يعني القول بوجود شريك لله، وله أربعة أقسام:

١ ـ الشرك في الذات

وهو أن يقول الانسان بوجود أكثر من مبدأ واحد للعالم، مثل العقيدة «الثنوية» للذين يعتقدون بخالقية «الله» و«الشيطان»، واعتقاد النصارى بالأقانيم الثلاثة (الأب والإبن وروح القدس) في وحدة الجوهر نفسه. وهذه العقيدة تتعارض مع فكرة الوجوب الذاتي للمبدأ، والتي تمّ إثباتها بطريق البرهان العقلي في مضانّها.

٢ ـ الشرك في الصفات

وهو القول بأن «صفات» الله تكون مضافة إلى «ذاته» المقدسة، كما هي الحال في «الممكنات». وهذه العقيدة تستلزم القول بأن الله عار في ذاته ـ والعياذ بالله ـ من كل كمال، كالحياة والعلم والقدرة (إذا اعتبرنا الصفات حادثة)، أو أن لله شريكا في «القدم» (إذا اعتبرنا الصفات قديمة).

بينما الحقيقة ـ كما قلنا من قبل في «التوحيد» ـ إن صفات الله هي ذاته عينها، ولا يمكن بأي حال من الأحوال فصل «واجب الوجود» عن الصفات الكمالية، إذ في غير هذه الحالة لايمكن تصور «واجب الوجود» واللامحدود.

ولنضرب لذلك مثلا: إن تجريد «السكر» من «الحلاوة» أو «الدهن» من «الدهنية» يعني انعدام «السكر» و«الدهن». فالسكر بلا حلاوة، او الدهن

بلا دهنية، او «النور» بلا ضياء، لا يعدو أن يكون تصوّراً غير معقول: «وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلّا العالمون[٧٠]».

٣ ــ الشرك في الأفعال

وهذا معناه أن يقول الانسان بوجود تأثير مستقل لغير الله في عالم الخلق والتدبير، وأنه شريك لله ونظير له في «الفاعلية المستقلة»، وأنه (أي غيرالله) في التأثير والتدبير، بكل أشكالها لا يكون محتاجا مطلقا لله، باعتباره مكتفيا ذاتيا ومستقلاً في الإرادة والعمل، سواء أكان تأثيره واستقلاليته بشكل «اشتراك» و «معية» مع الله، أم كان بصورة «تفويض» أمر الخلق والتدبير في العالم.

إن «الاشتراك» في العمل يشبه عمليا قيام شخصين أو أكثر، وبالتعاون مع بعض، برفع حجر ثقيل عن الأرض. ففي هذه الحالة يكون كل منهم محتاجا إلى عون الآخر في رفع الحجر، فهل يمكن القول بأن ما يملكه كل واحد منهم من القوة على رفع الحجر «مستقل» عما يملكه الآخرون من قوة، وأنه لايحتاج إلى عون الآخرين؟

هنا أيضا، أي في حالة افتراض اشتراك غيرالله مع الله (والعياذ بالله)، يكون الله، وبسبب محدودية قدرته، محتاجا إلى قدرة كائن آخر، فهل يكون هذا «الاخر» من حيث ما عنده من قدرة خاصة به، مستقلاً عن الله ولا حاجة له بعون منه؟

أمّا «تفويض» تدبير أمور الخلق في العالم إلى غيرالله فيعني أن الله بعد أن خلق المخلوقات فوّض أمر تدبيرها وإدارة أُمورها، من حيث الإحياء والإماتة وتوزيع الرزق والإعزاز و الإذلال، إلى المخلوقات أنفسهم، أو إلى فريق معين منهم، كاعتقاد اليهود بأن يد الله «مغلولة» عن تدبير أمور العالم، حسبما جاء في القرآن الكريم.

---

٧٠ ــ «العنكبوت: ٤٣».

«وقالت اليهود يدالله مغلولة[71]».

وهناك فرقة يطلق عليهم اسم «الغلاة» أو «المفوّضة» يعتقدون أن الله قد فوض أمر الخلق والرزق والحياة والموت والإبراء من الأمراض وحلّ المشكلات وغير ذلك، إلى الأئمة عليهم السلام، وأنه قد تنحّى واعتزل، تعالى الله عما يقول الجاهلون علوّاً كبيراً.

هاتان العقيدتان (الاشتراك والتفويض) في نظر أهل التوحيد الحقيقي إشراك وباطلتان، لأنهما فضلا عن كونهما منهيٌّ عنها شرعاً، فإنهما مستحيلتان عقليا، إذ إن اشتراك المخلوق مع الخالق في العمل، أو تفويض العمل إلى المخلوق واعتزال الخالق العمل، ممتنع الحدوث في منطق العقل السليم، لأن المخلوق «الممكن الوجود» المعدوم الوجود بذاته، يحتاج لحظة فلحظة إلى «إفاضة» الخالق الفيّاض ليفيض عليه «الوجود» حتى يتمكن من «إيجاد» الأثر، فلو أمسك الخالق المنّان فيضه عنه للحظة واحدة، لمابقي للمخلوق «وجود» فكيف ببقاء قدرته على «الإيجاد»!

إن تصور «الاستقلال» للوجود «الامكاني» الذي لا واقعية له إلّا بالاستناد إلى الخالق «الواجب الوجود» تصور غير معقول، والقول «بالمخلوق المستقل» قول متناقض، لأنه يعني الجمع بين «الوجود» و «العدم» وهذا مستحيل بالضرورة![72]

عالم الخليقة له نظام

«إذا ما أشرنا هنا إلى جانب من بحث «فلسفي» عميق بإيجاز؛ لانكون قد ابتعدنا عن المناسبة. وهذا البحث هو:

من المسائل الرفيعة القيّمة التي تتناولها الفلسفة والحكمة الإلٰهية بالبحث والدرس هي (كيفية الخلق، وكيفية صدور الكائنات عن ذات الباري جلّ شأنه

---

٧١ ــ «المائدة: ٦٤».

٧٢ ــ «توسل» ص ٨٠.

العزيز).

يتم في هذا البحث، عن طريق البراهين العقلية المتقنة، إثبات أن «فعل» الله وصدور الأشياء عنه قائم على «ترتيب» و «نظام» معيَّن.

وبعبارة أُخرى، إن «فاعلية» الله جارية في الاشياء وفق نظام معين و ترتيب متميز.

أي إن «علوّ» ذات الله جلّ شأنه العزيز وكبرياءه وقدسيته اقتضت أن تأتي سلسلة الكائنات، من حيث الخلق وقوة وجودها وضعفه، متتالية طوليا الواحد بعد الآخر، والأشرف فالأشرف.

وكل كائن منها، بحسب رتبته الخاصة، يكون معلولا لرتبة متقدمة عليه، ويكون هو في الوقت نفسه علة لكائن ذي مرتبة أدنى منه.

وبناء على ذلك، كل هذه «الإيجادات» الكثيرة التي تصدر عن سلسلة العلل والمعلولات المرتبة، هي نفسها «إيجاد» واحد صادر عن مقام «العلية» المنيع وخالقيته تعالى، فهو يقول:

«وما أمرنا إلّا واحدة»[٧٣].

كل ما في الأمر هو أن ذلك الإيجاد والعمل الواحد، في وحدته تلك، له مراتب ودرجات طولية وكثيرة، وتتجلّى كل مرتبة من تلك المراتب في صورة خاصة، وتكون منشأ إيجاد مرتبة أدنى منها.

فمثلا، ينعكس نور الشمس عن المرآة إلى الجدار، فلا يكون ثمة شك في أن الضوء على الجدار آت من المرآة، ولكن من البديهي أيضاً أن نور المرآة من الشمس، فهما، في الحقيقة، إشراق واحد يصدر من منبع واحد هو الشمس، فظهر أولاً على المرآة، وثانياً على الجدار، والاّ فليس هناك أي نور في المرآة لكي ينعكس على الجدار، ولا الشمس ألقت بضوئها على الجدار بدون وساطة المرآة[٧٤]».

---

٧٣ ــ «(القمر: ٥٠)».

٧٤ ــ «توسل» ص ٨٧.

لغة ظاهر الشرع المقدس في هذا الباب

«إن نظام الخلق الطولي الذي أثبتته البراهين الفلسفية، قد ورد على لسان القرآن الكريم وأقوال أئمتنا العظام بلغة أبسط وأوضح.

إننا جميعاً نعلم أن آيات القرآن الكريم وأقوال الأنبياء والأئمة عليهم السلام تتحدث عن وجود «الملائكة» و «جنودالله» الذين يؤدُّون أعمالا متنوعة، منها «المدبِّرات أمراً» و «المقسمات أمراً» و «معقّبات» و «حافظين... و كاتبين» و «النازلين بالوحي» و «الذين يقبضون الأرواح» وغيرهم، وأن لكل ملك مقاماً معيناً «وما منّا إلّا له مقام معلوم[٧٥]».

ويتحدثون أيضا عن وجود سلسلة المراتب بين الملائكة أيضا، فمنهم «العالي» و منهم «الداني»، وكل ملك «مقرب» يأتمر بأمره، بإذن الله، جمع من الملائكة، يقومون بوساطة الأعوان والأنصار بتدبير الأمور التي فرض الله عليهم القيام بها.

فجبرائيل (ع) هو الملك المكلَّف بإنزال الوحي، وميكائيل (ع) هو الملك الموكل بالأرزاق، وعزرائيل (ع) هو المكلَّف بقبض الأرواح، و إسرافيل (ع) هو صاحب «الصور» و محيي أهل القبور.

وهكذا هنالك ملائكة مكلفون بتدبير الأمور الجوية، كالسحاب والريح والمطر، وغيرهم مكلفون بتسجيل أعمال العباد لمحاسبتهم بعد ذلك يوم الحساب، وهناك الموكلون بالجحيم وبالجنة، ولكل هؤلاء ملائك تحت إمرتهم، والجميع يطيعون أوامر الله وينفذونها.

وهكذا نلاحظ أن القرآن والروايات تشير بكل وضوح إلى مقامات تدبيرية خاصة بأسماء مثل: العرش، والكرسي، واللوح، والقلم، لتنزيل أحكام الله و تنفيذها في عالم الخليقة. وهناك فريق من الملائكة هم «حملة العرش» وبعضهم «من حول العرش» يقومون بتدبير أمور الكون.

---

٧٥ ــ «الصافات: ١٦٤».

نخلص من ذلك الى أن هذه البيانات الدينية الصريحة تحكي بمجموعها عن وجود تشكيلات منظمة، ونظام ذي شكل و ترتيب معين في إجراء خلق الكون، وعن صدور سلسلة الكائنات هذه عن مقام الربوبية وفاعلية الله جل وعلا شأنه العزيز.

ومن ذلك تتضح الحقيقة القائلة بأن إرادة الله المتعال في خلق كل كائن لا تكون بدون وساطة كائن آخر، ولا كل كائن آخر يخلق منفردا ومستقلا عن خلق سائر المخلوقات.

إذ ان هذا التصور، فضلا عن كونه مردودا بالبراهين العقلية الدامغة، كما هي مبينة في مظانها، لأنه يؤدي الى ضرب من الهرج والمرج في الخلق، فإنه في منطق الدين المبين مردود أيضا لأنه لايتفق مع المبدأ المسلم به بشان «الوساطة في التدبير» والإيمان بوجود الملائكة المدبرة والفاعلة في نظام الخلقة الواسع وأبعاد الخلق المترامية. إن علينا أن لاننسى حقيقة مهمة، وان لا تغرب عن انظارنا، وهي أن «وساطة» الملائكة في تدبير الأمور بإذن من الله، على اختلاف أنواعها، ومكانة كل واحد منهم في النظام الإلٰهي، كما جاء في البيانات الدينية الصريحة، إنما هي من نوع الوساطة «التكوينية» و «الإيجادية»، لا من النوع «الاعتباري» المتفق عليه بشأن المناصب والمراكز الاجتماعية التي تسود المجتمعات البشرية، والتي لاأساس لها غير ذلك التوافق و «الاعتبار»، فقد ينصب شخص بتوقيع من وزير في منصب المدير العام، مثلا، ويسلب منه ذلك المنصب بتوقيع آخر.

ولكن في تشكيلات النظام الإلٰهي، عندما يقال، مثلا، إن «ملك الموت» مأذون من قبل الله «بقبض الأرواح» وأنه قد نصب في منصب «قابض الأرواح»، فنحن نعلم أن إذن الله هذا ليس شيئا مكتوبا وموقعا عليه، ولا هو مقام أُعطي لذلك الملك المقرب كاتفاق اعتباري. كالاتفاقات البشرية، بل إن إذن الله إذن «تكويني» ومنصب الملك منصب «وجودي». أي إن الله سبحانه وتعالى قد جعل بُنية «عزرائيل» الوجودية بصورة خاصة، وجعل فيها قدرة معينة تمكنه من إماتة الإنسان الحي، فيفرق بين الروح والجسد.

وكذلك «إسرافيل» فهو ملك خلقه الله وفيه من القدرة ما يمكنه من إحياء الأموات، وإعادة الروح إلى أجسادهم الميتة.

وعليه، فإن هذه «الإماتة» وهذا «الإحياء» فعلان صادران من الله، وإن الله هو الفاعل الحقيقي الأصلي، إلّا أن فاعليته، جلّ وعلا، تجلّت عن طريق الملائكة المقربين.

«عزرائيل» يريد أن يميت، ولكن بإرادة الله، والله يريد أن يميت، ولكن عن طريق إرادة عزرائيل. من البديهي أن هاتين الإرادتين ممتدتان طوليا، أي إن إرادة الله إرادة «ذاتية» و «أولية»، وإرادة عزرائيل إرادة «ممنوحة» و «ثانوية».

فلا عزرائيل قادر بذاته و بدون إرادة الله أن يميت حيّاً، ولا الله يريد أن يغيّر ما أقره في «نظام الفعل» و «سننه الثابتة»، فيميت حيّاً بدون وساطة عزرائيل، إذ إن إرادة الله في الإماتة هي إرادة عزرائيل نفسها في الإماتة، كما إن إرادة عزرائيل في الاماتة هي إرادة الله نفسها في الإماتة:

«إنا كل شيء خلقناه بقدر، وما أمرنا إلّا واحدة كلمح بالبصر[٧٦]».

نعم الأمر أمر واحد، و الصنع صنع واحد، إلّا أن هذا الصنع الواحد يتألف من سلسلة من الأسباب والمسببات!

«فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا»[٧٧].

لذلك، وعلى الرغم من جميع الواسطات والعمال في نظام الخلق، فإنهم جميعا في كل لحظة وكل آن متمسكون بسبب الله، خالق الكون، فكل العالم فقير إليه.

«يسأله من في السموات والأرض كلّ يوم هو في شأن[٧٨]».

إن نظام العلة والمعلول الذي يُسيِّر عالم الخلق هو بذاته إرادة الله «الفعلية» و فعله الدائم، كما ان إرادة الله «الفعلية» وفعله الدائم هما أيضا نظام

---

٧٦ ــ «القمر: ٥٠».

٧٧ ــ «فاطر: ٤٣».

٧٨ ــ «الرحمن: ٢٩».

العلة والمعلول بذاته الذي يسيّر عالم الخلق[79]».

لنتدبر آيات القرآن الكريم بهذا الشأن

على أساس هذا «النظام الطولي» في الخلق نجد القرآن ينسب الفعل الواحد إلى الله حيناً، وإلى الملائكة حيناً آخر، أو في الوقت الذي يسنده إلى الإنسان، يسنده إلى الله وينفيه عن الإنسان. من ذلك قوله:

«وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى»[80].

فنلاحظ في هذه الآية تعبير «إذ رميت» يثبت الرمي لرسول الله (ص)، وتعبير «مارميت» ينفي الرمي عنه، ثم تعبير «الله رمى» هو نسبة هذا «الرمي» إلى الله. أي إنه في الوقت الذي يثبت فيه «الفاعلية» للإنسان، ينفي «استقلالية» الإنسان في الرمي، ويعتبر الله هو الفاعل «المستقل» بالذات لذلك الفعل.

وفي موضع ينسب فعل قبض الروح إلى الله، فيقول:

«ألله يتوفّى الأنفس حين موتها...[81]».

وفي موضع آخر ينسب ذلك إلى ملك الموت، فيقول:

«قل يتوفّاكم ملك الموت الذي وكّل بكم...[82]».

أو يقول في موضع آخر:

«حتى إذا جاء أحدكم الموت توفّته رسلنا...[83]».

وحيناً يقول:

«يدبر الأمر من السماء إلى الأرض...[84]».

وحيناً آخر يقول:

---

٧٩ ــ «توسل» ص ٨٨.

٨٠ ــ «الأنفال: ١٧».

٨١ ــ «الزمر: ٤٢».

٨٢ ــ «السجدة: ١١».

٨٣ ــ «الأنعام: ٦١».

٨٤ ــ «السجدة: ٥».

«فالمدبِّرات أمراً...[٨٥]».

وحيناً يقول إن «الروح الأمين» هو الذي نزل «بالوحي»:

«نزل به الروح الأمين على قلبك...[٨٦]».

وفي موضع آخر ينسبه إلى الله جل وعلا فيقول:

«إنا نحن نزّلنا عليك القرآن تنزيلا...[٨٧]».

سر الأمر هو ما بيّنّاه، أي إن «فعل» الله وصدور الأشياء من الله يجري ضمن «نظام» وتشكيلات مرتبة، والفاعليات التي تجري داخل هذا النظام هي نفسها فاعليات الله، خالق الكون، والتي يعبّر عنها القرآن بتعبير «بإذن الله» كما في قوله:

«من ذا الذي يشفع عنده إلّا بإذنه..[٨٨]».

«هل من خالق غيرالله...»[٨٩].

«قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار...»[٩٠].

فهو الذي بسط ظل قدرته وسيطرته على كل عالم الوجود، وجعل كل الكائنات والمخلوقات تحت تدبيره وإرادته القاهرة. غيرأن هذا «الخلق» و هذه «الإرادة» و هذا «التدبير» يجري عن طريق نظام خاص، وكل «معلول» يأتي في أعقاب «علته» الخاصة به.

نعم، هو الله الذي «يتوفى الأنفس» ويقبض الأرواح، ولكن بوساطة عزرائيل (ع) و أعوانه، وهوالله الذي يعطي الرزق للمرزوقين:

«وما من دابّة في الأرض إلّا على الله رزقها»[٩١].

---

٨٥ ــ «النازعات: ٥».

٨٦ ــ «الشعراء: ١٩٣».

٨٧ ــ «الإنسان: ٢٣».

٨٨ ــ «البقرة: ٢٥٥».

٨٩ ــ «فاطر: ٣».

٩٠ ــ «الرعد: ١٦».

٩١ ــ «هود: ٦».

ولكن على يد ميكائيل (ع) ومساعديه.

هوالله الذي ينزل «الوحي» على قلوب الأنبياء عليهم السلام، ولكن بوساطة جبرائيل (ع) وأتباعه.

هوالله الذي ينزل المطر ويسير الرياح ويحيي الأرض وينبت النبات، ولكن بوجود ضوء الشمس وحرارتها بقدر معلوم.

يقول القرآن الكريم:

«ألله خالق كل شيءٍ وهو على كل شيءٍ وكيل»[٩٢].

«إن الله هو الرزّاق ذو القوة المتين»[٩٣].

«وقل الحمدلله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبّره تكبيرا»[٩٤].

يقول الإمام جعفربن محمدالصادق عليه السلام، في معرض حديث له مع إسماعيل بن عبدالعزيز الذي كان يغالي في اعتقاده بالإمام:

«يا اسماعيل، لا ترفع البناء فوق طاقته فينهدم. إجعلونا مخلوقين...»

بناءً على هذا يتضح بجلاء أن وجود الوسائط والاسباب والعلل بين الله وكائنات الكون لا يتناقض مع خالقية الله وفاعليته المستقلة، ولا ينقض المبدأ المسلَّم به: «لا خالق إلّا الله» و «لا رازق إلّا الله» و «لا مدبِّر في الخلق والأمر إلّا الله» و أخيراً «لا مؤثِّر في الوجود إلّا الله»، بل يبقى كل ذلك على أصالته ودقته وإتقانه، وذلك لأن الفاعل «المستقل» و «بذاته» في العالم هو الله، أمّا سائر الكائنات، مهما يكن مقامهم، فهم فاعلون «بالاذن»، وكل منهم مأذون بإنجاز عمل معين ضمن القدرة التي يمنحها الله تعالى له بمقتضى خلقه، إلّا أن أياً منهم ليس «مستقلا» في «الوجود» ولا في «الإيجاد» ولا يستطيع الوقوف على قدميه، حتى لفترة ارتداد الطرف.

---

٩٢ ـ «الزمر: ٦٢».

٩٣ ـ «الذاريات: ٥٨».

٩٤ ـ «الإسراء: ١١١».

إن العقل السليم يحكم بأن من كان «ممكن الوجود» يعتبر بحد ذاته «عدما» وفاقداً للوجود، ولذا يستحيل على مثل كائن كهذا أن يكون مبدأ الوجود، وأن تصدر عنه أفعال «الإيجاد» و «الإفناء» و «الإماتة» و «الإحياء».

بل إن الموجود «الممكن» (وكل موجود هو ممكن الوجود سوى الله) يكون مستنداً إلى الله ومحتاجاً إلى «القيُّوم» في الحدوث، والبقاء، والوجود، والإيجاد، بالذات وبالفعل.

«يا اسماعيل لا ترفع البناء فوق طاقته فينهدم. اجعلونا مخلوقين»[٩٥] أي إن وجودنا «الإمكاني» لايطيق تحمل مسؤولية «الخلق» و «الرزق» و «الاستقلال» في الفعل، مما هي من شؤون «واجب الوجود» جل وعلا، فلا تحمّلونا بها.

بل إن ما يليق بمرتبتنا الوجودية هو أن تضعونا في حدود المخلوقية والمربوبية لرب العالمين، عندئذ كل فعل يصدر منا يكون ضمن الفاعلية «بالإذن» استناداً إلى فاعلية الله «بالذات».

نعم، كل فعل يصدر عن الوسائط والأسباب والعلل، يصدر أولا، وبالذات، عن الله، وثانيا، وبالعرض، عن الوسائط والأسباب والعلل التي إذا انقطع «فيض» الله عنها للحظة واحدة؛ كان ذلك يعني فناء ذواتها وانعدام فعاليتها انعداماً تاماً.

وبديهي أن الفاعلين الذين وجودهم «ظل» لوجود الله، تكون فاعليتهم أيضا «ظلا» لفاعلية الله.

ومن باب التمثيل الناقص نقول: كل عمل يصدر عن العين والأُذن واليد والرجل وسائر قوى الإنسان الظاهرة والباطنة، والذي يقوم به العضو، قد يسند إلى الإنسان نفسه، فيقول: رأيت وسمعت وكتبت.

ودليل صحة هذين الإسنادين هو أن قوى الانسان الفاعلة مستقرة في

---

٩٥ ــ «بحار الأنوار» ج ٥ ص ٢٧٩، الحديث ٢٢.

«طول» النفس الانسانية الناطقة، وتنفذ أوامرها. وبعبارة أُخرى، إنها مظاهر لفعالية النفس، وهي تصدر أولاً وبالذات عن النفس، وثانياً وبالعرض تسند إلى قواها. إن النفس الانسانية الناطقة هي التي تقوم، بوساطة العين بالإبصار، وبوساطة الأُذن بالسماع، وبوساطة اليد بالكتابة. ولهذا يقول القرآن:

«والله خلقكم وما تعملون[٩٦]».

ففي الوقت الذي تسند فيه الآية «أعمال» الإنسان إليه نفسه (ومن تلك الأعمال نحتهم الأصنام بأيديهم والتي تتحدث عنها الآية)، فتقول: «وما تعملون»، فإنها تنسب خلقها وإيجادها إلى الله، فتقول: «الله خلقكم وما تعملون...».

ولا يخفى علينا، نحن الدارسين، أن «ما» المصدرية، أو الموصولة في الآية، لاتختلفان اختلافاً كبيراً في إيصال المعنى المقصود، وفي الوقت نفسه يفيد الموقف التعليلي في الآية بالنسبة للآية السابقة لها في تأييد الشمولية المطلقة بالنسبة لجميع أعمال الانسان، ويخرجها من التقيّد المراد بشأن «الأصنام» (فتنبه!)

ولهذا ليس هناك أي تناقض في آيات مثل «ألله يتوفى الأنفس» و «يتوفّاكم ملك الموت» و «توفته رسلنا» لأنها جميعا، في الحقيقة، «فعل» واحد و «فاعلية مستقلة» واحدة، تتحقق في «نظام» يتألف من «الفاعلين الطوليين».

وذلك الفاعل الواحد المستقل هو الله تعالى الذي يصدر فعله الواحد بصورة أفعال كثيرة من فاعلين متوالين يقفون الواحد منهم خلف الآخر، وكلهم يؤدون ما أُوكل إليهم من فعل بإفاضة وإشراق من الله وبأمره التكويني، دون أن يستغني أحد منهم للحظة واحدة عن تلك الإفاضة، ومن إشراق «نورالسمٰوات والأرض». وبناءً على ذلك تكون النتيجة: «لامؤثر في الوجود إلّا الله» و «لاحول ولا قوة إلّا بالله».

---

٩٦ ــ «الصافات: ٩٦».

الله لايحتاج الى «الوسائط»

إنه لنوع من الضلالة الفاضحة أن يتصور أحد أن الله سبحانه وتعالى، الغني عن كل حاجة، يشعر بالعجز والضعف في قدرته المطلقة لتدبير الأمر في هذا «النظام» والتشكيلات المنظمة، فيحتاج الى الوسائط والأسباب من الملائكة وغير الملائكة، نعوذ بالله من هذه الضلالة وهذا الوهم.

طبعا ليس الأمر هكذا، فتلك الذات المقدسة، والسبوح القدوس، الذي تكون جميع أشيائه من ذات وصفات وأفعال، هي عين ارادته الفعلية وأمره التكويني، كيف يمكن أن نتصور أنه جل وعلا يحتاج في الخلق وفي الفاعلية إلى تلك الوسائط، ويكون بعض مخلوقاته «وليٌّ من الذل» (العياذ بالله) أو «شريك في الملك» تعالى الله عما يتوهمه الجاهلون علوّاً كبيراً.

بل إن ضعف المرتبة الوجودية للأشياء هو الذي يجعلها غير جديرة باستقبال «الفيض» مباشرة فحرمها من ذلك، فلم يعد أمامها إلّا أن تستظل بظل الكائنات الأعلى منها مرتبة حتى تكون في مجرى تلقي الفيض الإلٰهي، فتستفيض من رحمة مبدأ الفيض الواسعة، ضمن مرتبة وجودها الخاص.

فمثلا، إن الله هو الذي يحيي الأرض وما عليها، وينبت النبات، وهو الذي يدير المنظومة الشمسية وفق حساب دقيق ومنظم، ولكن الذي لاشك فيه هو أن جميع هذه البركات تفيض من «الشمس» ومن الكرات الأُخرى على الأرض و مواليدها. فلولا وجود الشمس لتلاشت كل المنظومة الشمسية وما فيها.

فهل «الشمس» في هذه الحالة تعتبر بالنسبة لله «وليٌّ من الذل» و «شريك في الملك» بحيث ان الله ــ سبحانه وتعالى ــ لايكون قادراً، من دون وساطة الشمس، أن ينبت النبات ويحيي الأموات أم إن الأمر غير ذلك، وإن مقتضى بناء الارض والنباتات ومواليد الأرض الأُخرى تستوجب وساطة الشمس والمطر حتى تستفيض من فيض الله تعالى؟

نعم، إن علو مقام ذات الله القدسية من جهة، وتباين مراتب الكائنات علواً ودنواً، من جهة أُخرى، يقتضيان أن يجري فيض «الوجود» ونمو بركاته ضمن

«نظام» ذي «مراتب» عالية ودانية، فيصل إلى جميع الكائنات عن طريق العلل والأسباب والوسائط. فلا المراتب الدانية في الخلق قادرة، بدون وساطة المراتب العالية، على اكتساب الفيض من مقام الربوبية مباشرة، ولا مقام الربوبية الشامخ المقدس يشاء أن يفيض من إفاضاته على المراتب الدنيا من الخلق من دون وساطة الأسباب والعلل.

«وإن من شيءٍ إلّا عندنا خزائنه وما ننزّله إلّا بقدر معلوم[٩٧]».

ولنتأمل في هذه الجملة النيِّرة المنقولة قديما عن فاطمة الزهراء عليها السلام، إذ قالت:

«وأحمد الله الذي لعظمته ونوره يبتغي من في السمٰوات والأرض إليه الوسيلة، ونحن وسيلته في خلقه...[٩٨]».

وللاستمرار في بحث موضوع التوحيد والشرك ليزداد وضوحا في أذهان القراء، نورد بحثا دقيقا ونافعا بقلم الاستاذ الشهيد العلامة مرتضى المطهري (قدس سره)، حيث بيَّن بكل وضوح الحدود بين التوحيد والشرك ومقياس التميز بينهما بدقة. وبإيراد هذا البحث العميق البليغ لا يعود ثمة مجال لرفع الشعارات وخدع العامة واتهام الشيعة ومذهب التشيع النقي بأنه «رفض» وخروج عن الدين. إن الذين هم من أهل البصيرة ويحترمون العقل سوف يستمعون إلى منطقنا وسوف تتضح لهم الحقيقة. أمّا من كان من أهل الشعارات ومخادعة الناس، فسوف يهرب كالخفاش من سطوع أنوار هذه الاستدلالات العقلية والتحليلات العميقة، فيتوارى في غياهب الظلمات، ويترك ميدان العناد والافتراء وإلقاء التهم جزافا.

الحد بين التوحيد والشرك

«ما الحدُّ الفاصل بين التوحيد والشرك (نظريَّين كانا أم عمليَّين)؟

اي نوع من الفكر «توحيدي» و أيُّ نوع منه «شرك»؟ أي نوع من الأعمال «توحيدي» و أي نوع منها «شرك»؟

---

٩٧ ــ «الحجر: ٢١».

٩٨ ــ «نهج البلاغة» شرح ابن أبي الحديد، ج ١٦ ص ٢١١.

هل الاعتقاد بكائن غيرالله شرك «شرك ذاتي»؟ وهل «التوحيد الذاتي» يعني ان لانعتقد بوجود أي كائن غيرالله (حتى باعتباره خالقاً له، وهو نوع من وحدة الوجود)؟

بديهي أن مخلوق الله هو فعل الله، وفعل الله هذا دليل على أنه شأن من شؤونه، وليس له شأن في قباله. مخلوقات الله تجليات لفيوضاته، والاعتقاد بوجود مخلوق، من حيث كونه مخلوقاً، يكون متمما ومكمّلاً للاعتقاد بالتوحيد، لاضد التوحيد. إذن، الحد بين التوحيد والشرك هو وجود شيء آخر أو عدم وجوده، حتى وإن لم يكن من مخلوقاته.

هل الاعتقاد بدور المخلوقات في التأثير والتأثر والسببية والمسببية شرك؟ (الشرك في الخلق والفعل). وهل التوحيد في الأفعال يقتضينا أن ننكر نظام العلة والمعلول في الكون، وأن نقول بأن كل أثر صادر من الله مباشرة وبدون واسطة، وأن لا نعترف للأسباب والعلل بأي دور؟ كأن نعتقد، مثلا، بأن لا دور للنار في الإحراق، ولا دور للماء في الإرواء، ولا دور للمطر في الإنبات، ولا للدواء في الشفاء، بل نعتقد بأن الله هو الذي يحرق مباشرة ويروي مباشرة، وينبت مباشرة، ويشفي مباشرة، وأن وجود هذه العوامل وعدم وجودها سيّان، وكل ما في الأمر هو أن من عادة الله أن يحقق أفعاله بحضور هذه الاشياء، فمثلا، كأن تكون من عادة شخص أن يكتب رسائله وقبعته على رأسه، في حين إن وجود القبعة وعدم وجودها لا تأثير له في كتابة الرسائل، إلّا أن هذا الكاتب لا يرغب في أن يكتب رسالة وهو حاسر الرأس من دون قبعة. وهذا لا يختلف عن وجود ما يسمّى بالعوامل والأسباب وعدم وجودها، وإننا إذا قلنا بغير هذا نكون قد قلنا بوجود شريك، بل شركاء لله في أفعاله (نظرية الأشاعرة والجبريين).

هذه النظرية غير صحيحة. فكما أن الاعتقاد بوجود مخلوق لا يعني الشرك الذاتي أو الاعتقاد بوجود إله ثان أو قطب آخر في مقابل الله، بل هو مكمل ومتمم للاعتقاد بوجود الله الأحد، كذلك الاعتقاد بأن تأثير المخلوقات وسببيتها ودورها في نظام العالم ــ مع الأخذ بنظر الاعتبار أن ليس للكائنات استقلال ذاتي، ولا

استقلال في التأثير ــ الموجود بوجوده والمؤثر بتأثيره، ليس شركاً في الخلق، بل هو متمم ومكمل للاعتقاد بخالقية الله وحده.

نعم قد نقول إن للمخلوقات تأثيراً مستقلاً وفيضاً، ونعتبر الله بالنسبة للعلم كالصانع بالنسبة للمصنوع (مثل السيارة وصانعها)، بالنظر لأن المصنوع يحتاج لظهوره إلى صانع، ولكنه بعد أن يصنع يقوم بعمله الآلي وفقا لميكانيكيته. فللصانع دور في الصنع، لا في العمل الذي يؤديه المصنوع بعد الصنع، فإذا مات صانع السيارة، فستبقى السيارة مستمرة في عملها. فإذا كان تفكيرنا هكذا، أي إذا قلنا إن العوامل في العالم، كالماء، والمطر، والبرق، والحرارة، و التربة، والنبات، والحيوان، والانسان، وغيرها، نسبتها إلى الله مثل تلك النسبة (كما يعتقد بعض المعتزلة أحياناً) فهذا شرك لاشك فيه.

إن المخلوق يحتاج في حدوثه وبقائه إلى الخالق، وفي البقاء كما في التأثير، لايقل احتياجه عن ذلك، فالعالم عينه، والفيض عينه والتعلق عينه، والارتباط عينه، والاعتماد عينه، هي كلها «من عنديته» عينها. ولهذا فإن تأثير الأشياء وسببيتها هما تأثير الله وسببيته عينهما. إن خلاقية القوى والطاقات في العالم، في الإنسان وفي غيرالانسان، هي نفسها خلاقية الله وتصدر بفاعليته، بل إن الاعتقاد بأن دور الأشياء في عمل العالم شرك، يعتبر شركا. وذلك لأن هذا الاعتقاد قائم على القول، دون وعي، بأن للكائنات استقلالا ذاتيا في قبال استقلال الله الذاتي، وعلى هذا، فإذا كان للكائنات دور في التأثير، فإن هذا التأثيريعزى إلى أقطاب أخرى غيرالله. إذن، فالحدّ بين التوحيد والشرك ليس القول بوجود دور لغيرالله في التأثيروالسببية، أو عدم القول بذلك.

هل الحد الفاصل بين التوحيد والشرك هو الاعتقاد بقدرة ماوراء الطبيعة وتأثيرها؟

إن الاعتقاد بوجود قوة هي فوق قوانين الطبيعة العادية يملكها كائن، سواء أكان ملكا أم انسانا (كالنبي او الأئمة) يعتبر شركا، أمّا الاعتقاد بالقدرة والتأثر ضمن الحدود العادية والمتعارف عليها فليس شركا. كما إن الاعتقاد بقدرة

إنسان ميت وتأثيره شرك ، لأن الانسان الميت جماد، والجماد، في القوانين الطبيعية، لايشعر ولا قدرة له ولا إرادة. لذلك فالاعتقاد بوجود إدراك عند الميت، والسلام عليه وتعظيمه واحترامه ودعوته ومناداته وطلب الحاجات منه شرك ، إذ إن ذلك يستلزم القول بوجود قدرة ممّا وراء الطبيعة عند غير الله، كذلك الاعتقاد بوجود تأثيرات غامضة ومجهولة في بعض الأشياء، كالقول بأن حالة خاصة تؤثر في شفاء الأمراض، أو أن لمكان خاص تأثيراً في استجابة الدعاء، يعتبر شركا، لأنه يعني الاعتقاد بوجود قوة ممّا وراء الطبيعة في شيءٍ ما، إذ إن كل شيء طبيعي، يكون قابلاً للعلم وللتجربة ومحسوساً بالحواس. لذلك فان الاعتقاد بمطلق التأثير في الأشياء ليس شركا (كما اعتقد الأشاعرة)، ولكن الاعتقاد بأن في تلك الأشياء تأثيرات فوق طبيعية شرك . إذن، ينقسم الوجود إلى قسمين: الطبيعة وما وراء الطبيعة. وما وراء الطبيعة هي المنطقة المختصة بالله، والطبيعة هي المنطقة المختصة بالمخلوق، أو قل إنها مشتركة بين الله والمخلوقات.

هنالك مجموعة من الأعمال تتصف بكونها فوق الطبيعة، مثل «الإماتة» و «الإحياء»، وتوزيع الرزق، وأمثال ذلك، وسائر الأعمال الأُخرى طبيعية ومألوفة. أعمال ما فوق الطبيعة خاصة بالله، وغيرها يقع ضمن قدرة مخلوقاته.

هذا من حيث التوحيد النظري.

أمّا من حيث التوحيد العملي، فإن كل أنواع التوجه المعنوي إلى غيرالله، أي التوجه الذي لا يكون عن طريق الوجه واللسان نحو وجه وأُذن المتوجه إليه، بل يكون المتوجه راغباً في إيجاد نوع من العلاقة القلبية والمعنوية بينه وبين الطرف المتوجه إليه، فيدعوه، ويجلب انتباهه، ويتوسل إليه، ويطلب منه حاجاته، فهذه كلها شرك وعبادة غيرالله، إذ ما العبادة إلاّ هذه، وعبادة غيرالله غير جائزة بحكم العقل والشرع، وهي خروج عن الاسلام، كما إن القيام بهذه المراسم، وهي مراسم عبادية عملياً لغيرالله، لاتختلف عن الأعمال التي يقوم بها المشركون تجاه أصنامهم، وهي تعني الاعتقاد بوجود قوى ما وراء الطبيعة في الأشخاص المتوجه إليهم (النبي أو الإمام) (وهذه نظرية الوهّابيّين وأتباعهم في هذا العصر).

شاعت هذه النظرية إلى حدٍّ ما في زماننا، وخاصة بين طبقة معينة، ويعتبرونها دليلاً على التنور.

ولكن إذا أخذنا الموازين التوحيدية بنظر الاعتبار فستكون هذه النظرية، من حيث «التوحيد الذاتي»، قريبة من نظرية الأشاعرة و ملوثة بالشرك ، أما من حيث «التوحيد في الخلق وفي الفعل» فهي من أشد النظريات شركاً.

سبق أن قلنا عند رد نظرية الأشاعرة أن هؤلاء قد نفوا أن يكون للأشياء تأثير و سببية، زاعمين أن القول بذلك يعني القول بوجود الاقطاب والمناشئ في قبال الله. وقلنا إن الأشياء لا تظهر كأقطاب في قبال الله إلّا إذا كان لها «استقلال ذاتي». من هنا يتبين أن الأشاعرة كانوا يعتقدون ـــ دون وعي ـــ بأن للأشياء نوعا من الاستقلال الذاتي الذي يستلزم الإشراك بالله، ولكنهم كانوا غافلين عن ذلك، فأرادوا بإنكار أثر الأشياء إثبات التوحيد في الخلق، وهكذا، في الوقت الذي أنكروا الشرك في الخلق، أيدوا، دون وعي، نوعاً من الشرك في الذات.

هذا الاعتراض نفسه يصح بالنسبة للنظرية الوهابية والوهابيّين. فهؤلاء أيضا يقولون، دون وعي أيضا، بوجود نوع من الاستقلال الذاتي في الأشياء، ولهذا قالوا إن القيام بدور ما فوق الحد الطبيعي يستتبع الاعتقاد بوجود قطب أو قدرة في قبال الله غافلين عن أنَّ الكائن الذي يكون بكل وجوده معلّقا بإرادة الله، وليس له أيّ كيان مستقل بذاته، يكون تأثيره فوق الطبيعي مثل تأثيره الطبيعي، معتمداً على الله قبل أن يكون خاصا به، وأنه ليس سوى مجرى يمرُّ فيه فيض الله تعالى.

فهل كون جبرائيل هو واسطة فيض الوحي والعلم، أوكون ميكائيل هو واسطة توزيع الرزق، وكون إسرافيل هو واسطة الإحياء، وكون ملك الموت هو واسطة قبض الأرواح، شرك ؟

أمّا من حيث التوحيد في الخلق، فهذه النظرية من أقبح أنواع الشرك ، لأنها تقول بنوع من توزيع الأعمال بين الخالق والمخلوق: أعمال ماوراء الطبيعة يخصصونها لله، والأعمال الطبيعية يخصصونها لمخلوقات الله، أو المشتركة بين الله

والمخلوق. إن القول بمجال عمل خاص للمخلوق ليس سوى الشرك في الفاعلية، بمثلما أن القول بمجال عمل مشترك ليس سوى نوع آخر من أنواع الشرك في الفاعلية أيضا.

إن الوهابية، بخلاف ما يتصوره بعضهم، ليست مجرد نظرية ضد الإمامة، بل إنها قبل أن تكون ضد الإمامة، تكون ضد التوحيد وضد الإنسان. أمّا كونها ضد التوحيد، فلأنها تقسم العمل بين الخالق والمخلوق، كما أنها تعتقد بنوع من الشرك الذاتي الخفي، وقدسبق توضيحه. أمّا كونها ضد الانسان، فإنها تنزل بمواهب الانسان ــ تلك المواهب التي رفعته فوق الملائك وجعلته، بنص القرآن، خليفة الله، وأمرالله ملائكته بالسجود له ــ إلى درك الحيوان الطبيعي.

ثم إن الفصل بين الميّت والحي إلى درجة القول بأن الأموات ليسوا أحياءً حتى في العالم الآخر، وبأن كل كيان الإنسان هو جسده الذي يتحول إلى جماد بالموت، ليس إلّا نظرة مادية وضدالله.

كما إن الفصل بين الأثر المجهول الغامض، والآثار المعلومة، واعتبار الأول، بخلاف الثاني، ممّا وراء الطبيعة، يعتبر نوعا آخر من الشرك.

هٰهنا يتجلّى لنا معنى قول رسول الله صلى الله عليه وآله والذي مفاده إن الشرك ينفذ في الأفكار والعقائد ببطء وهدوء ودون ضجة بمثلما تدرج النملة السوداء في الليلة الظلماء على صخرة صلدة.

الحقيقة هي أن الحد بين التوحيد والشرك، في علاقة الله بالإنسان والعالم يتمثل فيما هو «منه و إليه». الحد بين التوحيد والشرك في التوحد النظري يتمثل فيما هو «منه» (إنّا لله). إننا ما دمنا نعتقد بأن كل حقيقة وكل كائن «منه» في الذات والصفات والأفعال، وفي الخصيصة والهوية، نكون قد عرفناه معرفة صحيحة ووفق الواقع والمنظور التوحيدي، سواء أكان لذلك الشيء أثر واحد أو أكثر، أم لم يكن له أي أثر. وسواء أكانت تلك الآثار ممّا وراء الطبيعة أم لم تكن، لأن الله ليس إلها لما وراء الطبيعة، وللسماء، وللملكوت والجبروت فحسب، بل هو الله لكل الكون، وقربه إلى الطبيعة ومعيته معها وقيموميته عليها، مثل قربه

إلى ما وراء الطبيعة، وإن اتصاف الكائن بشيء ممّا وراء الطبيعة لا يمنحه صفة الأُلوهية.

سبق أن قلنا إن العالم، من حيث وجهة النظر الإسلامية، يتصف بأن ماهيته «منه». إن القرآن في كثير من آياته يعزو إلى بعض الأنبياء القيام بأعمال معجزة، مثل إحياء الأموات، وإعادة البصر إلى الأعمى. ولكنه يصحب ذلك بكلمة «بإذنه»، وهي كلمة تبيّن أن ماهية هذه الأعمال «منه» لئلا يظن أحد أن للأنبياء استقلالهم الذاتي.

إذن، الحد الفاصل بين التوحيد النظري والشرك النظري هو كون الأشياء «منه». إن الاعتقاد بوجود كائن لا يكون وجوده «منه» شرك. والاعتقاد بتأثير كائن لا يكون تأثيره «منه» شرك أيضا، سواء أكان التأثير ممّا وراء الطبيعة، مثل خلق جميع السماوات والأرض، أم كان تأثيراً صغيراً تافها، مثل تقلب ورقة الشجر.

أمّا الحد الفاصل بين التوحيد والشرك في التوحيد العملي، فهو التوجه «إليه» (إنّا إليه راجعون). إن توجه كل كائن، باطنيا كان أم ظاهريا، إذا كان نحو الطريق الموصل إلى الله، لا إلى هدف آخر، يكون توجُّها إلى الله. إن الانتباه في كل حركة ومسيرة إلى الطريق وإلى العلامات والدلائل التي تهدي السائرين إلى الطريق الصحيح لئلا يتيهوا بعيداً عن المقصد، باعتبارها علامات ودلائل فقط، يعتبر «سيراً على الطريق» و «توجها إلى المقصد».

إن الأنبياء والأولياء هم الطرق إلى الله: «أنتم السبيل الأعظم والصراط الأقوم...» إنهم العلامات والدلائل للسير إلى الله: «وأعلاماً لعباده ومناراً في بلاده وأدلّاء على صراطه». وهم الهداة إلى الله تعالى:

«... الدعاة إلى الله والأدلّاء على مرضاة الله».

وبناءً على ذلك، فإن قضية التوسل، والزيارة، ودعوة الأولياء، وانتظار عمل خارق للطبيعة منهم ليست من الشرك في شيء، بل إن القضية شيء آخر: علينا أولا أن نعرف إن كان الأنبياء والأولياء قد سموا فعلاً إلى مراتب القرب من

الله بحيث إنهم غدوا موضع فيوضاته إلى هذا الحد، أم لا؟ يقول القرآن الكريم: ان الله قد وهب بعضاً من عباده هذا المقام الرفيع والدرجات العاليات.

القضية الأُخرى هي: هل الاشخاص الذين يذهبون للزيارة، ويتوسلون، ويطلبون الحاجات، لهم إدراك سليم، أم لا؟ هل هم يقصدون الذهاب «إليه» عندما يذهبون إلى الزيارة، أم إنهم يغفلون عن أنهم ذاهبون «اليه» ويرون أنهم يقصدون هذا الذي ذهبوا لزيارته؟ لاشك إن أكثر الناس متوجهون توجها غريزيا إلى الله عندما يذهبون للزيارة. لربما كانت هناك أقلية تفتقر إلى الإدراك التوحيدي (حتى في حده الغريزي)، لذلك لابدّ من تعليم هؤلاء معنى التوحيد، لا أن نعتبر الزيارة شركا.

القضية الثالثة هي أن الأقوال والأفعال التي تحكي التسبيح والتكبير والحمد والثناء الخاصة بالذات الكاملة على الاطلاق، وبالغني على الاطلاق، اذا قصد بها غيرالله كانت شركا. فالسُبُّوح المطلق، والمنزه المطلق عن النقص هوالله، والعظيم المطلق هوالله، وهو الذي ينحصر به كل ثناء، وهو الذي به يقوم كل حول وقوة، فإطلاق هذه الصفات، قولاً او فعلا، على غيرالله، شرك »[٩٩].

الوهابية وإنكار الواسطة في عالم الوجود

لقد بحث كبار الحكماء والفلاسفة المسلمون في كتاباتهم ومؤلفاتهم ضرورة وجود «رابط» و «وسيط» في عالم الوجود، وهي بحوث عميقة ومفيدة وقيّمة وتنير الطريق أمام طلاب الحكمة والعرفان. لقد أثبت هؤلاء ان الشيئين المتباعدين غاية البعد والمتباينين غاية التباين من حيث الرفعة والضعة يحتاجان للاتصال فيما بينهما الى «واسطة» يقوم بإيصال الأثر من «العالي» إلى «السافل». وفي غير هذه الحالة لا يمكن أن يكون هناك أي اتصال أو ارتباط بين كائنين متباينين ومتغايرين ومتباعدين بعض عن بعض.

كذلك ثبت في البحوث الفلسفية العميقة لصدر المتألهين وغيره من

---

٩٩ ــ «جهان بيني توحيدى» تأليف الشهيد مرتضى مطهري، ص ٩٣.

الفلاسفة والمحققين والحكماء المتعمقين المسلمين، أن الله تبارك وتعالى مجرد، بل فوق المجرد، وليس فيه أي نوع من النقص، والحدود الوجودية في وجوده اللامحدود لامتناهية، فهو «كل الكمال» و «كله الكمال». وعلى أساس قاعدة كونه «بسيط الحقيقة» (وهي قاعدة لامجال لبحثها وهي فوق إدراك العقول والأفهام العادية) تتمثل فيه الكمالات على نحو خالص غير مشوب وغير محدود. وهو «شيء لا كالأشياء» بتعبير أئمتنا المعصومين(ع)، أو شيء «بحقيقته الشيئية» وهي نفسها «حقيقة الوجود» و «حقيقة الحقائق» والتي توصف بلغة العرفان بأنها «نور الأنوار» و «الظاهر المطلق» و «غيب الهوية» و «أحدي الذات» و «عنقاء مغرب».

إننا، من ناحية أُخرى، نعلم أن كائنات هذا العالم المادي والمتطفلة على مائدة كرم الله وفيضه اللامتناهي واللامحدود، مادية، وجسمانية، ومحدودة، ومقيدة بالزمان والمكان، وأسيرة المسافة والوجود المحدود، ودائمة التغير والحركة والتطور، لها «شخصية آنية» و «هوية متحركة» وأسيرة الزمان.

ومن الامور الواضحة الأُخرى هي أنه فضلا عن أن الله وحده هو خالق جميع الكائنات: «الله خالق كل شيءٍ»، فإنه كذلك هاديها ومربيها أيضا: «ربّنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى» و «ربُّ العالمين»، والجميع يتحلّقون حول مائدة كرمه ونعمه، وما من أحد يملك بذاته شيئاً، والجميع محتاجون إليه، وهو غنيٌّ عن العالمين: «يا أيُّها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد». (فاطر/ ١٥).

والآن نقول: إذا لم تكن ثمة واسطة، فالغني المحض، بل «الغنى المحض» مع «الفقر المحض»، او المحض المجرّد اللامتناهي من حيث الشدة والمدة والعدة، ما سنخيّته؟ وكيف يمكن أن يجالس كائنا ماديا، ترابيا محدوداً، متغيّرا وجسمانيا؟ «السنخية علة الانضمام»، فكيف يمكن تفسير المجالسة والاتصال بين كائنين متباينين كل التباين؟ إلّا اللّهم إذا قيل إن هذه الكائنات الترابية المادية المحدودة، وهي «الغواسق»، تستمد بواسطة «العقول الكلية» التي هي «وسائط

الفيض» و «وسائل» القرب، وباصطلاح الفلاسفة هي «الجالسة بين الحدين»، من «نور الأنوار»، بشكل ما، الفيوضات، وفي ظل اكتساب الفيض من الباري جل جلاله يصل كل كائن إلى كماله الجدير به. هذه الواسطات لفيوضات الله ــ الأنبياء والأولياء المعصومون(ع) ــ لما لها من الجوانب الروحية تستمد الفيوضات من الله، ولما لها من الجانب الصوري ترتبط بالخلق وتفض عليهم من فيوضات الله.

هذا البيان الرفيع والبرهان القوي الذي يدلي به الفلاسفة المسلمون بشأن ضرورة وجود الأنبياء هو نفسه الذي يوردونه لضرورة وجود إمام وخليفة للنبي، إذ إن الدليل على ضرورة وجود إمام هو نفسه الدليل على ضرورة وجود نبي.[١٠٠]

من البديهي أن تكون لهذا البحث مقدمات فلسفية صعبة ومستفيضة، لسنا في هذا الكتاب بصدد الدخول في مباحثها الثقيلة والصعبة، ولكننا لامفرَّ لنا من توضيح نقطة مهمة، وهي أنه لامحمدبن عبدالوهاب ولا أساتذته، مثل ابن تيمية وابن القيِّم، كانت لهم أية معرفة بالمواضيع الفلسفية. إن جهلهم هذا ــ بالاضافة إلى تحريضات الجاسوس الانجليزي، مستر همفر، مندوب وزارة المستعمرات البريطانية، الذي أمر ابن عبدالوهاب باصطناع مذهبه ــ وكذلك بعد هؤلاء عن العلوم العقلية وعدم اطلاعهم على الفلسفة الإسلامية والحكمة الإلٰهية، أوقعهم في شباك عبادة الظاهر، والجمود الفكري، والبعد عن التعقل والتفكير. وهذا، بحسب مصطلح المصلحين(!) الحريصين على الحفاظ على الشرع والدفاع عن أصل التوحيد بأرواحهم [يعتبرون جميع صفات الله تعالى، كالقدرة، والعظمة، والعلم، والإحاطة، والحياة، وغيرها، منفصلة عن الكائنات، أي إنهم ينكرون أن تكون «الوساطة» من «الوسائط» و «المرآة» من مرايات الوجود التي هي مظاهر لذات الله تعالى.

وبناءً على ذلك، فإنهم لايرون معنى «الظهور والتجلي» في عالم

---

١٠٠ ــ «أسرار الحكم» تأليف الحكيم الالهي الملا هادي السبزواري. ولمزيد من الاطلاع يمكن الرجوع إلى «المبدأ والمعاد» و «أسرار الآيات» و «مفاتيح الغيب» لصدر المتألهين الشيرازي فيما يتعلّق بالإنسان الكامل، وكذلك إلى «الكلمات المكنونة» للملا محسن فيض الكاشاني.

الإمكان. وهكذا يقعون في محذور لاخلاص لهم منه حتى لو ظلوا يفكرون فيه الى يوم القيامة، وهذا المحذور هو: إننا نشهد عياناً ووجداناً كائنات كثيرة في هذا العالم لها جميعا حظ من الحياة والعلم والقوة، وليس هناك مجال للشك في أننا لا نستطيع أن ننكر وجود كائنات مؤثرة في هذا العالم.

والآن نقول: إذا اعتبرنا القوة والعلم في الله وحده دون الكائنات الكثيرة، فإن قولنا هذا خطأ وجداناً وشهوداً، إذ إن وجود هذه الصفات في الكائنات من الضروريات المسلَّم بها عن يقين. وإذا اعتبرنا أن لهذه الكائنات حياة وقوة وعلماً بصورة مستقلة، حتى وإن قلنا إنها من عطاء الله، فإن قولنا هذا خطأ أيضا، لأن هذا الكلام هو الشرك بعينه والثنائية نفسها، ويؤدي إلى تعدد الآلهة ومشكلات كثيرة أُخرى.

إن «الإعطاء» و «الاستقلال» لاينسجمان، إذ إن لازمة هذا الكلام هي القول بتولدُّ الكائنات من ذات الله، وهذا هو «التفويض» بعينه، مع إننا نعلم أن الله «لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد».

وبناء على ذلك، ليس أمامنا من سبيل علمي ولا فلسفي، إلّا أن نقول إنَّ كل ما في العالم من كائنات إنَّما هي مظاهر لتجليات ذات الله القدسية، أي أن نقول إن القوة والحياة والعلم مختصة بذات الله تعالى، ولكنها تتجلَّى وتظهر في هذه المخلوقات كل بحسب سعته وهويته. أي إن «الاستقلال» في الوجود مقصور على الله، بمثلما إن الاستقلال في الحياة والعلم والقوة وسائر الأسماء والصفات منحصرة بالله تعالى، وهي في غير الله تكون تابعة وعرضية. إنها في ذات الله أصيلة، وفي الكائنات مرآتية و آياتية.

وعلى ذلك، فلا شك في أن ظهورها أجلى وأظهر في الأرواح المجردة والنفوس القدسية والملائك، وفي نفوس الأنبياء والأئمة (ع) الناطقة المطهّرة، وفي الإمام المهدي (عج)، لأن سعتهم الوجودية أكبر من غيرهم، وهم المرايا التي تحكي، بالتمام والكمال، ذات الله وصفاته القدسية.

وعليه، فإن أصول القوة والعلم والحياة المختصة بالله تعالى، ظاهرة للعيان

في هذه المرايا ظهوراً مشهوداً لايمكن إنكاره لثبوته عقلاً.

الظهور والظاهر، والحضور والحاضر، شيء واحد، فإن «المعنى الحرفي» مندكّ في «المعنى الاسمي». والكائنات جميعاً، بدون استثناء، آيات وعلامات و «معان حرفية» بالنسبة لله تعالى، وتصور معنى الاستقلال «للمعنى الحرفي» غير معقول، وهو في القياس البرهاني يوجب الخُلف.

إن «المعنى الحرفي» و «المعنى الاسمي» ليسا شيئين، لأن «المعنى الحرفي» يبيّن كيفية «المعنى الاسمي» وخصوصيته، فطلب الحاجة من النبيّ الأكرم(ص) ومن الأئمة المعصومين(ع) لايختلف عن طلب الحاجة من الله، وهو التوحيد بعينه. لقد أثبتت الفلسفة الاسلامية المتعالية وجود الوحدة في الكثرة، والكثرة في الوحدة في الله تعالى. فكما أن الله تعالى يتصف «بالأحدية» التي تعني تنزُّهه عن جميع الأسماء والتعيُّنات، وأن تلك الاحدية تدل على تلك الذات البسيطة الصرف المجردة من كل تعلُّق ومفهوم منطبق عليه، كذلك هو يتصف «بالواحدية» التي تلاحظ في ظهوره وطلوعه في عالم الأسماء والصفات الكلية والجزئية، وظهور كل العوالم من ملك و من ملكوت.

يقول الوهابيون: خلق الله العوالم بدون واسطة، وإن الكائنات العلوية وملائكة السماء والأرواح المجردة القدسية، ليس لها أيُّ تأثير في الخلق، وليس لها صفة التوسط، ولذلك فإن الاستغاثة بروح رسول الله(ص) و الأئمة(ع) والملائكة، حتى المقربين منهم، شرك.

نقول في الرد: أو ليست الاستغاثة بأرواح الأحياء كنبيٍّ حيٍّ أو إمام حيٍّ شركاً؟ أليست الاستغاثة بالعالم والطبيب والمتخصص والفلاح والعامل شركاً؟

إذا كان ذلك شركا فلماذا تستعينون بهم؟ إذن اتركوا الاستغاثة في عالم الطبيعة وفي الحياة الدنيا، لتجدوا أنفسكم بعد لحظات أمواتا، عائدين الى ديار العدم، موطنكم الأصيل!

وإذا لم يكن شركاً، فما الفرق بين الاستغاثة بنبيٍّ حيٍّ أو بروحه بعد

وفاته؟ ما الفرق بين طلب العون من طبيب جراح لإزالة الزائدة الدودية، مثلا، والإستغاثة بجبرئيل؟

يقولون: هذه شرك و ذاك ليس شركا، لأن الارواح لا تُرى ولا تتصور، أي إن طلب العون من الأسباب الطبيعية والمادية ليس شركا، ولكن طلب العون من الأُمور المعنوية والروحانية شرك ؟ الاستعانة بالمادة القذرة ليس شركا، ولكن الاستعانة بالنفوس العالية المجردة القدسية شرك !

ونقول: القاعدة العقلية لا استثناء فيها. فإذا كان طلب العون من غيرالله شركا، فهو شرك في كل مكان، وخطأ في كل مكان. فكيف تريدون إثبات التوحيد بالدليل العقلي، ثم تستثنون في الأُمور المادية والطبيعية؟ أليس هذا مضحكاً؟ أم إنه ممّا يبكي أن تكونوا بهذا القدر من الضحالة والفقر في المعرفة والعرفان بالله؟

يقولون: الطواف حول قبر المعصوم شرك ، وتقبيل الضريح المطهّر شرك ، وتقبيل الأعتاب شرك ، والسجود على تربة سيدالشهداء(ع) شرك ، وجعل الأئمة والصديقة الزهراء واسطة لقضاء الحاجات شرك .

فنقول: لماذا شرك ؟ ما الفرق بين تقبيل الحجر الأسود وتقبيل الضريح؟

ما الفرق بين بيت يبنيه إبراهيم (ع) بسم الكعبة، والمرقد المطهر للآية الالٰهية الكبرىٰ، ومن علا مقامه حتى كان «قاب قوسين أوادنى» وصاحب الشفاعة الكبرى، وحامل لواء الحمد؟ لماذا يكون الطواف هناك جائز، ولا يكون هنا جائزاً، على الرغم ممّا فيه من مزايا[101]؟ لماذا يجوز السجود على الأرض

---

١٠١ ــ في عدم جواز الطواف حول القبور يستدل بعضهم برواية الحلبي عن الإمام جعفربن محمدالصادق(ع)، ورواية محمدبن مسلم عنه أو عن الإمام محمدبن علي الباقر(ع)، أنه قال: «لا تطف بقبر».

وهذا لا يعني الطواف، بل المراد به «الطوف» في هذا الحديث، وهو «التغوّط» لا «الطواف» والدوران حول القبر. اي لا تتغوط عند القبور! والشاهد على ذلك هو أقوال أئمة اللغة، كما في «صحاح اللغة» و «تاج العروس» و «لسان العرب» وغيرها. وقد جاء في «شرح القاموس» في مادة «طوف» الطوف: الغائط، وطاف: تغوّط، واطاف من باب افتعال. ←

والتراب وكل شيء، ولا يجوز على التربة الطاهرة للشهيد الوحيد الذي استشهد في سبيل الشرع و الشريعة والحق والحقيقة، أبي عبدالله الحسين(ع)؟ فإذا كان السجود على شيءٍ شركا، فكيف يجوز على الفرش والبساط والأرض والحصير، ولكنه على تربة الحسين(ع) حرام؟ لماذا يكون هناك توحيداً، ويكون هنا شركا؟

إنكم عندما تطلبون العون من الإنسان الحيّ إنّما تطلبونه من روحه لا من جسمه! فلماذا لا يكون طلب العون من النفوس الخبيثة الكافرة في الدنيا شركا، ولكن طلبه من روح الزهراء الطاهرة شرك ؟

هذه أسئلة لا يستطيع الوهابيون الإجابة عنها، وهم لم يستطيعوا، ولن يستطيعوا.

ولكن الجواب هو: إذا كان طلب العون بصفة الاستقلال، فكلّه شرك : الطواف ببيت الله، وتقبيل الحجر الأسود، والسجود على الفرش والأرض العاديين، وكذلك جعل الطبيب والجراح والعالم المتخصص وسطاء. ولكن طلب العون من هؤلاء، بوصفهم غير مستقلين، ليس شركاً، بل هو التوحيد بعينه. أليس النظر إلى كائنات هذا العالم، باعتبارها مستقلة، شركاً؟ إذن، فهؤلاء الوهابيون بهذا التنزيه والتقديس اللذين يبدونهما لله تعالى، قد ألقوا بأنفسهم، دون وعي وإدراك ، في أحضان الشرك ، وأصبحوا ممّن يعبدون الله على حرف، أي إنهم ينظرون إلى الله من نافذة واحدة فقط، ويرون قدرته و عظمته في بعض الأشياء، لا في جميع الأشياء وفي كل مكان.

إن النظر إلى الآية، من حيث كونها آية، هو النظر إلى التوحيد ذاته. وتقبيل الإمام من حيث كونه إماماً هو التبجيل عينه لله. وعرض الحاجات على الأرواح المقدّسة، من حيث المعنوية والروحية والقرب من الله، يعتبر عرضاً لتلك

وفي «مجمع البحرين»: «... والطوف: الغائط، ومنه الخبر: «لا تبُل في ماء مستنقع ولا تطف بقبر»».

وعليه، فليس ثمة من شك في أن الطواف حول القبور لا حرمة فيه، إذ ان المقصود في هذه الأحاديث هو التغوط لا الطواف (راجع «النهاية في غريب الحديث والأثر» لابن الأثير).

الحاجات على الله، وهو التوحيد عينه. إن حبَّ أحباء الله هو حبُّ الله.

هذا بالدليل العقلي، وأمّا من حيث الدليل النقلي، فنقول: كثير من الآيات والأحاديث تؤكد أن الكائنات وسائط في الإيجاد والوجود، وأن الخلق يتم بالسببية. فإلغاء الواسطة في عالم التكوين، فضلاً عن كونه إنكاراً لأمر وجداني، فإنه كذلك إنكار للمنقولات الشرعية من الكتاب والسنة. ألا نقرأ في كتاب الله: «... والمدبرات أمراً...» و «... وأرسلنا الرياح لواقح...»[102] فيما بين الاشجار لينتج الثمر و «.. والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور»[103] و «وهو الذي أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نبات كل شيءٍ»[104]

وهكذا نجد هذه الآيات تقول بأن الأمور من تدبير الملائكة، والمطر من تحرك السحاب إلى حيث الجفاف، والثمار من تلقيح الأشجار بواسطة الرياح، وخروج النباتات من سقوط الأمطار من السماء. كما أن هناك آيات كثيرة أُخرى صريحة في القول بأن هذه أيضا هي أسباب حصول التكونات.

فكيف يجوز لنا أن نُنكر السببية في الوقت الذي تؤكد فيه هذه الآيات ذلك؟ إذن، فإنكار السببية في عالم الوجود مستحيل بالأدلة العقلية والأدلة النقلية، إن العالم عالم العلّة والمعلول، فكل شيءٍ يأتي إلى الوجود عن طريق علّته الخاصة، فإنكار العلّة والسبب والواسطة يعني إنكار قانون العلّيّة، وإنكار قانون العلّيّة في العالم يعني إنكار البديهي، ولا ينكر البديهي الاّ المريض أو السفيه أو المغرض أو المجنون!

ولكن لابدّ من القول بأن جميع هذه الأسباب إنما هي تأتمر بأمر الله ولا تملك أي استقلال ذاتي، وكلٌّ منها جندي من جنود الرحمٰن: «لله جنود السمٰوات والأرض». (الفتح: ٤) وما نقوله نحن أيضا بشأن هذه الأسباب وكل

---

١٠٢ ــ «الحجر: ٢٢».

١٠٣ ــ «فاطر: ٩».

١٠٤ ــ «الأنعام: ٩٩».

الأسباب الأُخرى، مادية كانت أم معنوية، هو أن هذه الأسباب ليس لها استقلال بذواتها، بل هي شفيعة وشافعة وواسطة أخذ الفيض من الله وإفاضته على العوالم.

يقولون: إن الاستعانة بأرواح الأنبياء والأئمة (ع) يعني الاستعانة بأرواح الاموات، وهذا ضرب من التوجه إلى الأموات وعبادة الأصنام، لأن الإنسان يستعين بشيءٍ ميِّت ليس له أثر عيني خارجي، فيجعله شفيعاً له عندالله، لذلك لا فرق بين الاستعانة بصنم والاستعانة بشيءٍ لا أثر له.

فنقول: تنص آيات من القرآن والبراهين العقلية على أن روح الإنسان لا تموت بعد موته، بل هي حيَّةٌ ولا يمكن أن تنعدم انعداماً تامَّاً بحسب نظرية «تجرد النفس». والموت عبارة عن الانتقال من الدنيا إلى الآخرة. ثم ألم يقل القرآن في الشهداء:

«ولا تحسبنَّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون»[١٠٥]؟

يقولون: إن هذه الآية جاءت بشأن الشهداء، شهداء غزوة أُحد، مثل حمزة وغيره.

الجواب: ألم يكن حمزة وغيره من الشهداء يتبعون نبوة رسول الله (ص)؟ فهل مقام حمزة أرفع من مقام رسول الله بحيث يكون هو حيّاً ويكون رسول الله ميتاً بعد وفاته؟

كلا، ليس الأمر كذلك، بل إن رسول الله هو شهيدالشهداء، والموكل بأرواح الأنبياء. إننا في صلواتنا اليومية نسلِّم على النبي: «السلام عليك أيُّها النبي ورحمة الله وبركاته». أيكون مخاطبنا ميتا ولا يستطيع أن يسمع كلامنا هذا.][١٠٦]

التوسل

من الأُمور التي يثير الوهابيون الكثير من الضجة حولها هو قولهم بالتناقض

---

١٠٥ ـــ «آل عمران: ١٦٩».

١٠٦ ـــ «إمام شناسي» تأليف السيد محمدحسين الطهراني، ج ٥ ص١٤٢ بتصرُّف.

بين فكرة التوسل ومبدأ التوحيد، فهم يبثون الكثير من سمومهم في كتبهم ضد الشيعة، قائلين إن الشيعة ماداموا يؤمنون بالتوسل فهم مشركون، وخارجون عن الدين وتوحيدهم ليس توحيداً! إنهم، بنظرتهم القاصرة، يظنون أن التوسل يتناقض مع الاعتقاد بالتوحيد. وهذا، بالطبع، انحراف آخر من الانحرافات الفكرية عند هذه الفرقة الاستعمارية، وإلّا فإن كل امرئٍ بصير وعارف بالقرآن وبأحاديث الشيعة والسنة يعلم أن التوسل فضلا عن كونه لايناقض التوحيد فإنه الطريق الوحيد إلى أساس التوحيد، والذي دعا إليه القرآن «دعوة ارشادية». وإننا لكي نبرهن على بطلان مزاعم الوهابيين الكاذبة لابدَّ لنا من أن نتناول بالبحث موضوع التوسل ليتبيَّن الحق من الباطل، والصدق من الكذب.

التوسل لغويا

«توسل»: اتخذ «وسيلة» ليتقرب بها من شيء. وتوسل إليه بوسيلة: إذا تقرب إليه بعمل. وتوسل إلى الله بعمل. عمل عملاً تقرَّب به إليه تعالى.

و«الوسيلة» لها معانٍ متعددة، منها:

١ ــ التقرب.

٢ ــ الحظوة عند السلطان.

٣ ــ المنزلة والمكانة.

٤ ــ سبب للوصول الى مبتغى مرغوب فيه.

٥ ــ كل ما يجعل الاقتراب من شيء آخر ممكناً.[١٠٧]

التوسل في الفطرة

«لاشك في أن الإنسان، من أجل الحصول على الكمالات التي يريدها، سواء أكانت مادية أم معنوية، يحتاج إلى «غيره»، أي إنه يحتاج إلى شيءٍ خارج وجوده.

آلاف الكائنات من جماد ونبات وحيوان وإنسان وأرض وسماء يجب أن

---

١٠٧ ــ «توسل» ص ٢٧.

تتظافر حتى يستطيع الإنسان، تحت أشعة هذه الكائنات وخصائصها وآثارها الوجودية، أنَّ يسدَّ جانبا ممّا يجده من نقص، ولينال بعض كمالا ته المادية أو المعنوية.

هذا يصح بالنسبة لسائر الكائنات، أي إن كلاً منها، لكي يحصل على كمالا ته النوعية، لابدَّ له من أن يستعين بكائنات أُخرى خارجة عنه، للاستفادة من كل ما يحدث في أرجاء العالم من فعل وانفعال وتأثير وتأثر، وظواهر متنوعة.

هذا هو قانون «التوسل» وهو حقيقة تكوينية ونظام ثابت طبيعي في عالم الخلق، وهو يجري على الانسان وبادٍ للعيان، وما من إنسان عاقل، ماديا كان أم إلهيا، يشك في سريان هذا القانون الحتمي في نظام عالم الوجود، أو ينكر الخصائص المؤثرة في الكائنات. إننا جميعا نعلم أن الانسان العطشان يرتوي بشربة ماء بارد، والبردان يزول برده بالتدفئة، والدواء يؤثر في تحسين حال المريض، والسم يعرِّض حياة السليم إلى الخطر، والجاهل بالتعلّم يصبح عالما، و الفقير يغتني بإحسان المحسنين، وفي الربيع ينزل المطر، فيمنح الأرض طاقة، فتخرج نباتاتها متنوعة، ويتغذى الحيوان على النبات، ثم يكون سبب بقاء الانسان وإدامة حياته.

وهكذا كل سلسلة الكائنات، تؤثر في غيرها وتتأثر بغيرها. غير أن الانسان ذا النظرة المادية يحسب أن كل هذه الخصائص والآثار الموجودة في الكائنات قد وُجدت بصورة عمياء، وأنها من خصائص تركيب المادة نفسها ومعلولة طبيعتها الذاتية.

ولكن الإنسان الإلٰهي المذهب يجرُّ البحث إلى طبايع الأشياء وتراكيب الأجسام الخاصة، ويرى أنها قائمة على نظام وحساب دقيق ظاهر فيها، ويستند إلى الإرادة الحكيمة لمبدئ عليم وحكيم.

وعليه، فإن النظام الموجود في العالم والقانون الحاكم فيه؛ هو نظام «التوسل» و قانون «التسبب». أي إن الوصول إلى أي كمال وأي هدف يكون، بحكم الطبيعة، مرهوناً باتخاذ «وسيلة» ومنوطاً بالسبب.[١٠٨]».

---

١٠٨ ــ المصدر نفسه، ص ٢٨.

التوسل في القرآن

«ولهذا، فإن القرآن الذي نـزل منسجما وفطرة الانسان، يرى «التـوسل» طريقاً واضحاً ومسلّـماً به للوصول إلى الهدف والتوحيد. لـذلك فإن إنـكار مبدأ «التوسل» يعتبر في الواقع إنـكاراً لأحد الأُصول المعروفة في عالم الطبيعة، وتجاهلاً لقانون من القوانين الفطرية المعترف بها.

إنّ «القرب مـن الله» هو أكـمل شـرف وأشرف كمـال يمكـن أن يبـلغه الانسان في مسيرة عبوديته وعبادته. لذلك يقول القرآن:

«يـا أيُّها الـذين آمنـوا اتـقوا الله وابتـغوا إليـه الوسيلـة وجاهدوا في سـبيله لعلكم تفلحون»[١٠٩]

وفي موضع آخر يقول:

«قـل ادعوا الـذين زعـمتم من دونـه فلا يملـكون كشـف الضرّ عـنكم ولا تحويلا. أُولئـك الذين يـدعون يبتـغون إلى ربهم الـوسيلة أيّهم اقرب ويـرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا». (الاسراء: ٥٦/٥٧).

هذه الاية الشـريفـة تدل على أن كـل ما سوى الله، من ملائـكة وأنـبياءَ وسائر طبـقات المخلوقات وأصنافهم تبـتغي إلى الله الوسيلة لاكـتساب بركات الله وفيوضاته، جـل شأنه (إرادياً أو لا إرادياً)، واستجلاب رحمته ودفع عذابه «يبتغون إلى ربّهم الوسيلة أيّهم أقرب».

وقد روي عن رسول الله صلّى الله عليه وآله قوله:

«إسألوا الله لي الوسيلة فإنها درجة في الجنة لاينالها إلّا عبدٌ واحدٌ أرجو أن أكون أنا هو»[١١٠].

كما نقل عنه صلّى الله عليه وآله أنه عند سماع الأذان كان يقول:

---

١٠٩ ــ «المائدة: ٣٥».

١١٠ ــ صحيح مسلم، ص ٤٢، وتفسير «مجمع البيان» ذيل الآية ٣٥ من سورة المائدة مع بعض الاختلاف في العبارة.

«... آت محمداً الوسيلة»[111]

والإمام عليٌّ عليه السلام كان يدعو للرسول الكريم إلى الله ويقول:

«وشرِّف عندك منزلته وآته الوسيلة...»[112]

إذن، فكل الكائنات، بما فيهم أشرفها، رسول الله نفسه، يبتغون «الوسيلة» للتقرب إلى الله، على الرغم من أن وسيلة النبي تختلف كثيراً عن سائر الوسائل، وإدراكها فوق طاقتنا.

وإذا كان جميع الكائنات بذواتها تمديد السؤال إلى خارج وجوداتها «يبتغون إلى ربّهم الوسيلة» للتقرب إلى الله، فليس لأيٍّ من مخلوقات عالم الإمكان الجدارة لكي يكون معبوداً، ولا أن يكون بذاته قادراً على دفع البلاء وإفاضة الرحمة، وذلك لأن المعبودية والاستقلال وإفاضة الرحمة هي، بحكم العقل، من شؤون «القائم بذاته» ومن خصائصه واستقلاليته وقدرته، وهو الله جل شأنه.

أما سائر المخلوقات، الفاقدة للوجود ولجميع الكمالات بذواتها، فعليها أن «تبتغي الوسيلة» الى مبدأ الوجود ومصدر كل كمال للاستفاضة من رحمته «اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة».

و «للوسيلة» كما قلنا معانٍ لغوية مختلفة، وأنسبها بحسب الظاهر من سياق الكلام في الآيتين المذكورتين (الآية ٣٥ من سورة المائدة والآية ٥٧ من سورة الإسراء) هو المعنى الخامس، أي: كل ما يجعل الاقتراب من شيء آخر ممكنا، وخاصة في الآية الأولى، حيث نرى بعد الأمر بابتغاء الوسيلة جاء الأمر بالجهاد في سبيل الله، ثم اعتبار نتيجة «التقوى» و «ابتغاء الوسيلة» و «الجهاد» هي «الفلاح»، بقوله: «لعلكم تفلحون».

بديهي أن الفلاح هو بلوغ مقام «القرب» من الله، وبحكم لزوم التغاير بين «المقدمة» و «النتيجة» يجب أن تكون «الوسيلة» غير «القرب»، أي إن «الوسيلة» يجب أن تكون شيئاً يتسبب في نيل الإنسان «القرب» و «الدرجة» و

---

١١١ ـ المصدر نفسه.

١١٢ ـ «نهج البلاغة» ط ١٠٤.

«المنزلة»، أي «الفلاح».

وكذلك الأمر «بالجهاد» الذي جاء بعد الأمر بابتغاء الوسيلة، فالظاهر من الآية أن الجهاد (سواء أكان بمعنى القتال ضدالكفار أم مطلق السعي في سبيل الله) يعتبر من أهم مصاديق «ابتغاءالوسيلة»، ولما كان من البديهي أن «الجهاد» نفسه لايعني تحقق «القرب» الخارجي والعيني، بل هو سبب ومقدمة «للقرب»، فإن معنى «الوسيلة» في هذه الآية ليس «الدرجة» ولا «المنزلة» ولا «السبب»، لذلك فالمعنى الصحيح والمناسب «للوسيلة» في تلك الآية هو المعنى الخامس الذي ذكرناه.

ثم لما كانت كلمة «الوسيلة» قد جاءت «مطلقة» في الآية المباركة من دون أيِّ تحديد، وإن كانت لها معان كثيرة وواسعة وحرّة، فهذا «الإطلاق» غير المقيد يجعل الكلمة تشمل كل اعتقاد، وكل عمل، وكل شيءٍ وكل شخص له بشكل من الاشكال صلاحية «التقريب» الى أعتاب الخالق العظيم، مثل: الايمان بوحدانية الله، وبرسالة الأنبياء، وبيوم الجزاء، وكذلك اتباع رسول الله (ص) وأداء الفرائض والعبادات كالصلاة والصوم والحج والزكاة والجهاد وإرشاد الجهلة، وصلة الرحم، وعيادة المرضى وأمثال ذلك من الأعمال الصالحة التي تعتبر كلها «وسائل» للقرب من الله.

يقول أميرالمؤمنين علي (ع): «إن أفضل ما توسل به المتوسلون إلى الله سبحانه: الإيمان برسوله والجهاد في سبيله... وكلمة الاخلاص... وإقام الصلاة... وإيتاء الزكاة... وصوم شهر رمضان... وحج البيت واعتماره، وصلة الرحم... وصدقة السر... وصدقة العلانية... وصنائع المعروف...»[113].

كذلك هم الأنبياء والأولياء والمقربون إلى أعتاب الله ومعرفتهم، ومحبتهم، ودعاؤهم، وشفاعتهم، والتقرب إلى أولئك العظام، واحترام مقاماتهم، وزيارة مراقدهم المطهرة وقبورهم الشريفة، ممّا هي من المصاديق الحقة لتعظيم شعائرالله،

---

١١٣ ــ المصدر نفسه، ص ١١٠.

وأدلة بارزة على المحبة والمودّة والتعلّق بعبادالله المخلصين، وإظهار آيات التكريم والتبجيل للهداة إلى طريق الله. لاشك أن كل هذه تدخل ضمن نقطة «الوسيلة» بمعناها المطلق الواسع. أي إن هذه اللفظة تصدق على كل هذه الأشياء التي تعتبر ممّا يتقرب به إلى الله ونيل مرضاته.

وبناءً على ذلك، فليس ثمة ما يدعو إلى تجاهل المعنى المطلق في لفظة «الوسيلة» في الآية المذكورة، ونقصر معناها على مفهوم أو مفهومين خاصين، كما فعل ابن تيمية ويفعل أتباعه من الوهابيين الذين قيّدوا معنى «الوسيلة» دون دليل مقبول، بمفهومين فقط:

١ ــ الإيمان برسول الله (ص) و اتّباع سنته.

٢ ــ دعاء الرسول الكريم (ص) وشفاعته في حياته الدنيوية، وفي يوم القيامة.

وقد يفسرونها بمعنى الفرائض الواجبة والمستحبات.

ولكن بالإضافة إلى أن الآية الشريفة «مطلقة» وغير مقيدة، فإن هناك في كتب الحديث المروية عن طرق الشيعة وطرق أهل السنة، أحاديث كثيرة حول «التوسل» تؤكد بكل وضوح المعنى المطلق الواسع العام الشامل لتلك الكلمة، وتؤيد، في التقرب إلى الله ونيل البركات من المنبع الفياض جلّ وعلا، الاستغاثة والاستعانة بالصالحين والمقربين عندالله، بأيّ شكل من الأشكال وأيّ حال من الأحوال»[١١٤]. ولكننا تجنُّباً للإطالة لا نتطرّق إليها، وعلى الراغبين الرجوع إلى كتب الحديث والسيرة والتاريخ عند أهل السنة، مثل كتاب «وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى» للسمهودي.

الشفاعة

من القضايا الأُخرى التي يثير الوهابيّون الغبار حولها ويوجهون الاتهامات بسببها إلى الشيعة هي قضية الشفاعة التي كثر الكلام حولها بظهور المذهب

---

١١٤ ــ «التوسل» ص ٣٠.

الوهابي. يقول هؤلاء إن الاعتقاد بشفاعة الأولياء والصالحين يتناقض مع التوحيد، وهو، لذلك، شرك، ولإثبات هذا الزعم يشكلون بعض الإشكالات، ويستشهدون ببعض الآيات. إننا بهذا الشأن سنورد البحث المسهب الذي كتبه الاستاذ الشهيد العلاّمة مرتضى المطهري (رضوان الله عليه) في كتابه القيم (العدل الإلهي)، والذي نعتقد أنه بحث يقتلع من الجذور كل شبهة ويردُّ كل إشكال ويقضي على كل اتهام، ولسوف يتفهم القرّاء الكرام المهتمون بالبحوث العقائدية صدق المنظور الشيعي بالنسبة للشفاعة، ويُدركون كيف أن الذين ابتعدوا عن علوم أهل البيت (ع) ومعارفهم، ووقعوا ضحايا أهوائهم النفسية، قد ضاعوا في متاهات الاعتقادات الفاسدة والأفكار الواهية والأوهام المتخيلة.

يبدأ الاستاذ الشهيد المطهري بتعداد الانتقادات الموجَّهة إلى قضية الشفاعة، أو التي يمكن أن توجه إليها، ثم يباشر بتفنيدها والرد عليها، في بيان شاف ووافٍ، كما يلي، فيقول:

من المواضيع التي لابدَّ من طرحها و تحقيقها هو موضوع «الشفاعة». لقد جرت في هذا الموضوع مناقشات حامية، ولاسيما بعد ظهور المذهب الوهابي الذي روَّج لها.

وهذا المذهب الذي ينسب إلى محمدبن عبدالوهاب، وهو المذهب الرسمي لحكومة آل سعود، مذهب سطحي جداً ويعلن التوحيد في العبادة فقط، ولهذا فهو ينكر كثيراً من المعارف الاسلامية الدقيقة السامية. والتوحيد الوهابي، مثل توحيد الأشاعرة، يخالف الكثير من الأصول الاسلامية.

اعتراضات و شبهات

إن الاعتراضات والشبهات التي أُثيرت أو قد تثار حول «الشفاعة» يمكن أن تلخص في الأُمور التالية:

١ ــ الشفاعة تتعارض والتوحيد في العبادة، والاعتقاد بها ضرب من ضروب الشرك.

هذا الاعتراض لا يوجهه الوهابيون وحدهم، بل يشاركهم في طرحه بعض

الشيعة المخدوعين بالوهابية.

٢ ـــ الشفاعة، إضافة إلى كونها تتعارض والتوحيد في العبادة، فإنها تتعارض كذلك مع التوحيد في الذات ايضا، وذلك لأن الاعتقاد بالشفاعة يعني أن رحمة الشفيع ورأفته أوسع من رحمة الله ورأفته، باعتبار أن الله كان سيعاقب المستشفع لولا الشفاعة.

٣ ـــ الاعتقاد بالشفاعة يجرّئ النفوس الراغبة في الذنب، بل إنها تشجعهم على ارتكاب الذنوب.

٤ ـــ لقد أبطل القرآن الكريم الشفاعة ورفضها، فهو يصف يوم القيامة بقوله: «واتقوا يوما لاتجزي نفس عن نفس ولا تُقبَل منها شفاعة ولا يُؤخذ منها عدل ولاهم يُنصرون»[١١٥]

٥ ـــ الشفاعة تتناقض مع مبدأ قرآني يجعل سعادة كل امرىءٍ مرهونة بعمله فقط: «وأن ليس للإنسان إلّا ما سعى»[١١٦].

٦ ـــ لو صحت الشفاعة للزم الاعتقاد بأن الله يقع تحت تأثير الشفيع الذي يحيل غضبه إلى رضا، مع أن الله منزه عن الانفعالات وعن تبدل حالا ته، ولا يؤثر فيه أيُّ عامل، إذ التغيرينافض الوجود الذاتي لله سبحانه.

٧ ـــ الشفاعة تعني قبول الاستثناء والمحاباة واللاعدالة، مع أن النظام الإلٰهي لايقبل اللاعدالة. وبعبارة أُخرى، تكون الشفاعة استثناءً من قانون الله. بينما شريعة الله كلية لا استثناء فيها ولا تغيير «ولن تجد لسنة الله تبديلا».

وهذا الاعتراض يربط بحث الشفاعة بالعدل الإلٰهي، ممّا يدخله ضمن مباحث هذا الكتاب ـــ العدل الإلٰهي ـــ وعليه فيمكن صياغة الاعتراض على الشكل التالي: لاشك أن الشفاعة لا تشمل جميع المذنبين، إذ في هذه الحالة يفقد القانون معناه، كما لا يكون للشفاعة معنى، إذ إن الشفاعة تلازم المحاباة والاستثناء. ومن هنا يرد الاعتراض: كيف يصح تقسيم المذنبين إلى فئتين، فئة

١١٥ ـــ «البقرة: ٤٨».

١١٦ ـــ «النجم: ٣٩».

تنجو من العقاب بالواسطة، وفئة يحق عليها العقاب لأنها من دون واسطة؟

إننا نلاحظ في المجتمعات البشرية أن انتشار ظاهرة الوساطة يعتبر دليلاً على فساد ذلك المجتمع وانحطاطه وتفشي الظلم فيه، فكيف يمكن الاعتقاد بقبول الله الوساطة، مع العلم أنه حيثما تكون وساطة لا تكون عدالة؟

ضعف القانون

في المجتمع الذي يكون فيه تأثير لعوامل «المال» و «الوساطة» و «القوة» يكون القانون متّسماً بالضعف.

وعندما يكون القانون ضعيفاً فهو لا يطبق بحق الأقوياء والأثرياء، بل يقتصر تطبيقه على الضعفاء.

القانون الضعيف يصطاد المجرمين الضعفاء ويقدّمهم للعدالة لينالوا جزاءهم، ولكنه عاجز عن اصطياد الأقوياء من المجرمين.

والقرآن الكريم يصف القوانين الإلٰهية بالقوة والمنعة، ويرفض تأثير «المال» و «الوساطة» و «القوة» في محكمة العدل الإلٰهي.

ويعبّر القرآن عن المال بـ «العدل» (من العدول عن الحق، فعندما يعطى المال كرشوة فإنه يؤدي إلى العدول والانحراف عن الحق) او «العدل» بمعنى «المعادل». ويستعمل القرآن «الشفاعة» بمعنى «الوساطة» و «النصرة» بمعنى «القوة» في الآية ٤٨ من سورة البقرة:

«واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يُقبَل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدلٌ ولا هم يُنصرون».

أي إن النظام في العالم الآخر لا يشبه النظام الاجتماعي البشري في هذه الدنيا، حيث يتهرب الانسان أحيانا من القانون متوسلا بالمال، أو بالواسطة، أو بالقوم والعشيرة، فتقوم هذه الوسائل بإعمال نفوذها للحيلولة دون قيام منفذي القانون بتنفيذه. كان القانون في صدد الاسلام قوياً في المجتمع الاسلامي بحيث كان يطبق حتى على أقارب الحاكم وبطانته. «فعندما نمي إلى عليٍّ بن أبي طالب (ع) أن ابنته قد استعارت بضمان قلادة من بيت المال تتزيّن بها أيام العيد، لامها أشد

اللّوم وعنّفها بقسوة قائلاً: لو لم تأخذيها عارية مضمونة لقطعت يدك ــ أي لنفّذت فيك حد السارق»[117].

كما إنه كتب الى ابن عباس، ابن عمه و من اصحابه، يعنّفه على أمر كان قد بدرَ منه، ويقول فيما يقول: «... فاتّق الله وآردد إلى هؤلاء القوم أموالهم فإنك إن لم تفعل ثم أمكنني الله منك. لأُعذِرَنّ إلى الله فيك ولأ ضربنك بسيفي الذي ما ضربت به أحداً إلّا دخل النار...».

أي إنك تعلم أن سيفي لاينزل إلّا على من كان من أهل النار، وإن عملك هذا قد جعلك من أهل النار ومستحقا لضربة سيفي.

ولكي يؤكد أن عدالته لا تستثني أحداً، يقول: «... ووالله لو أن الحسنَ والحسينَ فعلا مثل الذي فعلت لما كانت لهما عندي هوادة...»[118].

ذلكم هو صدر الاسلام، وهذا هو منفذ قانون الاسلام، الامام علي بن أبي طالب (ع).

وإذا شئتم أن تحيطوا علماً بالمدى الذي وصل إليه الجهاز التنفيذي الذي أنشأه رسول الله صلى الله عليه وآله، فإليكم هذه الحكاية:

عيّن عمربن الخطاب عمروبن العاص عاملاً له على مصر. ومرة صفع ابن عمرو رجلاً، فشكاه الرجل الى عمرو، فلم يُلقِ إليه بالاً، فرحل الشاكي الى المدينة يعرض شكواه على عمربن الخطاب، فأمر عمر باستدعاء عمروبن العاص وابنه وقضى بينهما، و قال قولته المشهورة يخاطبهما:

«متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أُمهاتهم احرارا؟»

ثم أصدر حكمه.

وسار عمربن الخطاب وفق هذه السيرة نفسها مع ابنه هو. فعندما ثبت عنده أن ابنه شرب الخمر أجرى عليه الحد الالهي.

---

١١٧ ــ «بحار الأنوار» ج ٩ ص ٥٠٣.

١١٨ ــ «نهج البلاغة» الرسالة ٤١.

هذه هي العدالة التي علّمها رسول الله صلّى الله عليه وآله للمسلمين، ولم يكن المسلمون قد نسوها بعد، والعجلة التي أدارها بيده كانت ماتزال تدور.

أنواع الشفاعة

إن للشفاعة، في الواقع، أنواعاً، منها ماهو مجحف وظالم، وهذا لا وجود له في العدل الإلهي، ومنها ماهو سليم وعادل وهو إلهي.

الشفاعة المجحفة هي التي تخرق القانون وتتعارض معه. أمّا الشفاعة السليمة فهي التي لاتخرج عن القانون بل تحافظ عليه وتؤيده.

الشفاعة الغلط هي أن يحاول شخص ما أن يحول دون تنفيذ القانون عن طريق الواسطة. هذه النظرة إلى الشفاعة ترى أن المجرم يعمل بخلاف ما يريده واضع القانون وبخلاف الهدف المطلوب من القانون، وهو بالتوسل بالواسطة يتغلب على إرادة المقنّن وهدف القانون. هذا النوع من الشفاعة ظلم في الدنيا، ومستحيل في الآخرة. إن الاعتراضات الموجهة إلى الشفاعة إنما تقصد هذا النوع منها، وهو النوع الذي يرفضه القرآن ايضا.

أمّا الشفاعة السليمة فهي نوع آخر من الشفاعة ليس فيها استثناء، ولا محاباة، ولا نقض للقوانين، ولا خروج على إرادة المقنّن. إن القرآن يبيّن بصراحة أنه يؤيد هذا النوع من الشفاعة، التي لها بدورها أنواع سوف نبادر إلى شرحها.

نقض القانون

الشفاعة التي ترفضها الأدلة العقلية والنقلية هي التي يسعى فيها المجرم إلى اختراق الحكم الالهي والحيلولة دون تطبيقه، كما يحدث في المجتمعات البشرية من التلاعب بالقانون وإيقاف عمله بالوساطات.

يظن كثير من عامة الناس أن شفاعة النبي والأئمة إنما هي من هذا النوع. إنهم يظنون أن النبي(ص) والامام علياً وفاطمة الزهراء وسائر الأئمة الأطهار(ع) لهم نفوذ على الساحة الإلهية يستطيعون به تغيير إرادة الله ونقض قوانينه.

كان العرب في الجاهلية يحملون هذا التصور نفسه عن الاصنام التي اعتبروها شريكة لله، بقولهم إن الخلق منحصر بالله سبحانه ولا شريك له في

ذلك: إلّا أن الاصنام تشاركه في إدارة الكون. فشرك الجاهلية على هذا، ليس في «الخالقية» بل في «الربوبية».

على الصعيد البشري، نرى أن شخصاً ما يؤسس مؤسسة ويعهد بإدارتها إلى شخص آخر، أو يشترك مع لجنة تتولّى إدارتها، وهذا أشبه بتصور المشركين في الله بالنسبة لإدارة الكون. وقد شنَّ القرآن حربا شعواء على هؤلاء المشركين، مكرِّراً القول بأن ليس لله شريك لا في الخالقية ولا في الربوبية، وأنه هو وحده الذي خلق الكون، وهو الذي يديره، فهو ملك الناس وهو ربُّ العالمين.

فالمشركون الذين كانوا يظنون أن ربوبية الكون مقسمة بين الله وغيره؛ لم يروا ضرورة جلب رضاالله تعالى وحبّه، بل قالوا: إننا بالقرابين والأدعية والطقوس التي نتوجه بها إلى الأصنام يمكن أن نجلب رضا الارباب الآخرين ونكسب حبَّهم، حتى إذا لم نظفر برضى الله وتأييده، لأن رضى الآلهة الأُخرى يضمن لنا رضى الله بشكل من الأشكال.

فإذا كان بين المسلمين من يعتقد بمثل هذا الاعتقاد، أي يعتقد بوجود سلطة أُخرى إلى جانب قدرة الله وفي مقابلها، فإن ذلك شرك لاشبهة فيه.

وإذا ظن أحد أن نيل رضى الله تعالى والقرب منه له طريق، ورضى الإمام الحسين(ع) له طريق آخر، وأن كلَّ واحد منها يستطيع، مستقلا عن الآخر، أن يضمن سعادة الإنسان، فهو لاشك في ضلال مبين.

هذا الظن الخاطئ يذهب إلى أن نيل رضى الله سبحانه وتعالى يتم بفعل أشياء خاصة، وأن نيل رضى الامام الحسين(ع) يتم بفعل أشياء أُخرى غيرها، كأن يتم رضى الله بأداء الفرائض كالصلاة والصيام والحج والجهاد والزكاة والصدق والتقوى وخدمة الناس والبر بالوالدين وأمثالها، وترك المحرمات كالكذب والظلم والغيبة وشرب الخمر والزنا. أمّا الإمام للحسين(ع) فإنه لايهتم بهذه الأُمور وإنّما يتم إحراز رضاه بالبكاء عليه، مثلا، أو بالتباكي على ولده الشاب علي الأكبر. أي إن اهتمامات الحسين غير اهتمامات الله سبحانه. ثم يستنتج صاحب هذا الظن أن رضى الله صعب المنال للغاية ولا يتم إلّا بالقيام

بأعمال عديدة وعسيرة، أمّا رضى الحسين(ع) فيتم بكل يسر وسهولة، بالبكاء واللطم، فإذا فزنا برضى الحسين فإنه سوف يشفع لنا عندالله بما له من نفوذ وحظوة عنده، ويصفي الجو المتعكر بيننا وبين خالقنا بعد تركنا الصلاة والصيام والحج والجهاد والإنفاق في سبيل الله. ومهما كبرت ذنوبنا فإن شفاعة الحسين قادرة على محوها.

هذا التصور للشفاعة ليس باطلا فحسب، وإنما هو شرك في الربوبية وإهانةٌ لشخصية الإمام الحسين(ع) الذي كان هو نفسه يعتز بعبوديته وعبادته لله. فكما كان أبوه(ع) يعوذ بالله من «الغلاة» ويغضب من أقوالهم، كذلك لم يقتل الحسين(ع) لتكون له ــ والعياذ بالله ــ ارادة مستقلة في قبال إرادة الله سبحانه، أو تكون له شريعة في مقابل شريعة جدّه(ص) تفتح الطريق أمام المذنبين للهروب من عقاب الله.

إن الحسين لم يستشهد من أجل إضعاف شريعة القرآن، ولا للتقليل من أهمية الفرائض الاسلامية، بل إن الحسين لم يضحِّ بنفسه إلّا من أجل إعلاء شأن شريعة القرآن والفرائض الإسلامية نفسها. وها هو يبين فلسفة ثورته، فيقول:

«... وإني لم أخرج أشراً، ولا بطرا، ولا مفسداً، ولا ظالماً، وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي، أُريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر».

كما إننا نقول في مخاطبتنا له عند زيارته:

«أشهد أنك قد أقمت الصلاة وآتيت الزكاة وأمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر وجاهدت في الله حق جهاده وعملت بكتابه واتبعت سنن نبيه (ص)...»

حفظ القانون

إذن، كيف تكون الشفاعة الصحيحة؟

الشفاعة الصحيحة والسليمة هي التي تؤيد القانون وتحافظ على النظام.

وثمة روايات كثيرة يرويها الشيعة وأهل السنة تؤكد ذلك.

وهذه الشفاعة على نوعين:

١ ــ شفاعة «القيادة» أو شفاعة «العمل».

٢ ــ شفاعة «المغفرة» أو شفاعة «الفضل».

النوع الأول هو الشفاعة التي تشمل النجاة من العذاب، ونيل الحسنات، بل وبلوغ الدرجات العليا. والنوع الثاني هو الشفاعة التي تؤثر في غفران الذنوب ودرء العذاب، وقد يصل تأثيرها إلى نيل الحسنات والثواب، ولكنها لا ترفع من درجة الإنسان. وهذه هي الشفاعة التي قال عنها رسول الله صلّى الله عليه وآله:

«إدّخرت شفاعتي لأهل الكبائر من امتي. أمّا المحسنون فما عليهم من سبيل»[١١٩].

شفاعة القيادة

لتوضيح هذا النوع من الشفاعة لابدّ لنا من استيعاب ما مضى بيانه عن «العذاب الأُخروي» من أن الأعمال التي يرتكبها الانسان في الحياة الدنيا تتجسد في الحياة الأُخرى تجسيداً عينياً. ونضيف إلى ذلك هنا أن الأعمال ليست هي وحدها التي تتجسد في الآخرة، بل «العلائق» تتجسد أيضا تجسّداً عينياً. فالعلائق المعنوية بين الناس تتحول إلى صورة مرئية على صعيد الواقع، فعندما يكون الإنسان سبباً في هداية شخص ما، فإن علاقة القائد والقدوة الحسنة التي تحققت بينهما تتحول يوم القيامة إلى صورة عينية يكون فيها الهادي بصورة القدوة والإمام، والمهدي بصورة تابع ومؤتم، وكذلك الحال في التضليل والإغواء.

يقول الله في كتابه الكريم:

«يوم ندعو كل أناس بإمامهم.»[١٢٠]

أي كل شخص يُنشر مع القدوة التي استهدى بها وتبعها في العمل. وبشأن تجسُّد فرعون، الذي كان قدوة لقومه، يوم القيامة، يقول:

«يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار»[١٢١].

فرعون، الذي كان من الضالين في الدنيا وقدوة لهم، وكان الظالمون من

---

١١٩ ــ «مجمع البيان» ج ١ ص ١٠٤.

١٢٠ ــ «الإسراء: ٧١».

١٢١ ــ «هود: ٩٨».

قومه يتبعونه خطوة بخطوة، سوف يتجسّد في العالم الآخر كإمام وقائد.

إذن، فرعون شفيع و واسطة لقومه في هذه الدنيا وفي الآخرة ـــ شفيع في الدنيا لأنه دفع قومه إلى الضلالة والإثم، وشفيع في الاخرة لأنه سيكون الواسطة لسوقهم إلى النار. فوساطته وشفاعته لدفع قومه نحو الجحيم في الآخرة هي تجسيد لتوسطه في الدنيا لتضليلهم.

والذي يلفت النظر في التعبير القرآني هو قوله إن فرعون «يورد» قومه نار جهنم، وهذا إشارة إلى تجسيد تأثير فرعون في تضليل قومه. فمثلما أوردهم الضلالة في الدنيا، كذلك يوردهم النار في الآخرة، بل لعل إدخالهم النار في الآخرة هو بعينه تجسيد إدخالهم الضلالة في الدنيا.

وكما أن للهداية إلى الحق والباطل أقساماً وفروعاً في هذه الدنيا، لها كذلك مثل ذلك في الآخرة أيضا. فمثلا، جميع الأشخاص الذين أشرق عليهم نور محمد(ص) واتبعوا شريعته، سوف يأتون خلفه يوم القيامة، وهو في المقدمة يحمل «لواء الحمد».

وبهذا المعنى للشفاعة، يكون الرسول العظيم شفيعاً لعلي بن ابي طالب ولفاطمة الزهراء(ع). وهذان يكونان شفيعين للحسنين، وكل إمام يكون شفيع الإمام الآخر وشفيع طلابه وأتباعه، فسلسلة المراتب محفوظة، وكل ما لدى المعصومين فهو بواسطة الرسول الكريم (ص).

وعلى هذا الأساس يصبح العلماء الذين يهدون ويقودون شفعاء لمن يتبعونهم ويستهدون بهم، فتكون سلسلة مترابطة مليئة بالفروع حيث ترتبط الفئات الصغيرة بالفئات الأكبر، حتى تنتهي إلى رأس السلسلة، وهو النبي الأكرم (ص). يقول الشاعر:

قسيم جسيم وسيم بسيم   شفيع مطاع نبي كريم

*

وقد جاء في رواية عن رسول الله (ص) أنه قال:

«إن القرآن شافع مشفع وماحل مصدق»[١٢٢].

فالقرآن شفيع مقبولة شفاعته، وساع ناجح سعيه.

ما أروعه من تعبير!

فالقرآن الكريم شفيع المؤمنين والمحسنين لنيل الجنة والسعادة، وهو خصيم الكافرين والمجرمين ويلقيهم في الجحيم.

والقرآن واسطة لهؤلاء لدخول الجنة و واسطة لأولئك لدخول النار.

وخليق بمثل هذه الشفاعة أن تدعى «شفاعة القيادة» أو «شفاعة العمل» لأن العامل الأساس الذي يوجب النجاح أو الخيبة إنما هو العمل، صالحاً كان أم طالحا.

وهكذا يتضح أن الاعتراضات التي وجهت إلى الشفاعة غير ذات موضوع بهذا المعنى الذي شرحناه للشفاعة، وهي شفاعة لا تتناقض إطلاقا مع العدل الإلهي، بل تؤكده.

شفاعة المغفرة

النوع الثاني من الشفاعة هو الشفاعة في المغفرة، أو غفران الذنوب. وهذه هي الشفاعة التي أثارت عاصفة من الاعتراضات والانتقادات، ولكننا، إن شاءالله، سوف نوضح معناها بما يبين أنها فضلا عن كونها لا تتقبل أيَّ اعتراض، فإنها من المعارف الاسلامية السامية، وأن لها أسساً مكينة تنبئ عن عمق المعارف الاسلامية.

جاذبية الرحمة

لابدَّ من التنبه إلى أن نيل السعادة لا يكون عن طريق عمل الانسان فحسب، بل هناك دائماً سبيل آخر في الكون، وهو «رحمة الله السابقة» فقد جاء في النصوص الدينية:

«يا من سبقت رحمته غضبه».

وكذلك جاء في القرآن الكريم:

---

١٢٢ ــ «العدل الإلهي» للشهيد مرتضى مطهري، ص ٢٧٢.

«إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أُولئك عنها مبعدون»[123].

على كل حال فالرحمة والسعادة والخلاص هي التي لها الأصالة في عالم الوجود، والكفر والفسق والشرور امورٌ عارضة وغير أصيلة، ولذلك فإن جاذبة الرحمة تعمل دائماً وإلى الحد الممكن على إزالة تلك الأمور العارضة. إن وجود الإمدادات الغيبية والتأييدات الرحمانية كلها شواهد على غلبة رحمته غضبه. أما مغفرة الله ومحو عوارض الذنوب فشاهد آخر على أن رأفته ومحبته فوق غضبه.

ولعل السبب في وجود الكثير من الروايات التي مفادها أن الامام الحسين(ع) يشفع لخلق كثير هو أن مدرسة الحسين(ع) عملت على إحياء الدين وهداية الناس أكثر من أيّ مدرسة أُخرى. وقد سبق أن قلنا إن شفاعة الحسين(ع) ليست في أن يطلب من الله شيئاً هو خلاف رضاه وإرادته. إن شفاعته على نوعين: نوع هو هذه الهداية التي هدى بها الناس في هذه الدنيا، فتتجسد في العالم الآخر. والنوع الآخر هو ما سنشرحه فيما يلي:

الإمام الحسين(ع) يشفع للذين اهتدوا بهدى مدرسته، لاالذين أحالوا مدرسته وسيلة للضلال. ولابدّ هنا أن لا يغرب عن بالنا أنه مثلما اهتدى بالقرآن فريق من الناس، وضل فريق، كذلك اهتدى بمدرسة الحسين(ع) فريق من الناس، وضل فريق آخر، وهذا أمر يعود إلى الناس أنفسهم. يقول القرآن في ذلك:

«يُضلُّ به كثيراًويهدي به كثيراً وما يُضلُّ به إلاّ الفاسقين»[124].

والقضية أشبه بالحبل الذي يمكن به النزول إلى قعر البئر، كما يمكن الصعود به من قعر البئر، وللمرء أن يختار بين النزول والصعود.

القرآن والمدرسة الحسينية هما الحبل الذي يمكن به الصعود إلى أوج السعادة. الأول حبل من الله، والآخر حبل من الناس، فإذا شاء أحد أن يسيء استعمال هذين الحبلين فلا لوم على الحبل من ذلك، وفي هذه الحالة ينزل أمثال

---

١٢٣ ــ «الأنبياء: ١٠١».

١٢٤ ــ «البقرة: ٢٦».

هؤلاء، وبواسطة القرآن والمدرسة الحسينية، إلى قعر الجحيم، وهذه الحقيقة تتجسد في العالم الآخر بحيث يأمر القرآن والأئمة بهؤلاء فيُلقون في النار. وهذا معنى: «قسيم الجنة والنار!»

مبدأ التطهير

من مظاهر رحمة الله وجود التطهير في نظام الوجود، فلجهاز الخلق خاصية الغسل والتطهير.

ومن مظاهر التطهير هو امتصاص البحار والنباتات غاز ثاني أُوكسيد الكاربون من الجو لتصفيته. ولولا هذه المصفاة العظيمة لتلوث الجو بهذا الغاز الناتج من تنفس الأحياء ومن احتراق المواد العضوية، ولأصبحت الكرة الأرضية غير صالحة للحياة بسبب اختناق الكائنات الحية.

ومن المظاهر الأُخرى للتطهير تحلل الأجسام والمواد العضوية والفضلات التي تطرحها الكائنات الحية، فيعود إلى الطبيعة نقاؤها وصفاؤها.

فظاهر التطهير والتصفية التي تعم عالم الطبيعة وتعتبر من قوانين المادة، لها ما يماثلها في عالم المعنويات أيضا. فالمغفرة ومحو آثار الذنوب، تعتبر من قبيل الغسل والتطهير، فالمغفرة هي غسل القلوب والارواح من آثار الذنوب بقدر الإمكان.

هنالك، بالطبع، قلوب أصبح من المتعذر غسلها وتنظيفها، فلم تعد تستجيب للتطهير، بل إنها قد تحولت الى نجاسة عينية. عندما يحل الكفر والشرك بالله في قلب انسان، فإن ذلك القلب يفقد قابلية التطهير. وفي هذا يقول القرآن الكريم:

«ختم الله على قلوبهم» أو «طبع على قلوبهم». فختم القلب يعني امتناع القلب عن قبول أي مقتحم جديد.

مبدأ السلامة

من الشواهد على أن رحمة الله تغلب غضبه في نظام الكون هو أن الصحة والسلامة هما الأصل دائما في هذا النظام. أمّا الأمراض فهي عارضة ثانوية. إن في داخل كل كائن طاقة تحفظ سلامته وتحمي وجوده. ودليلنا على ذلك هو وجود

كريات الدم البيض التي لها طاقة دفاعية عظيمه.

والدليل الآخر هو قابلية الترميم والالتئام في الأحياء، فإذا حدث كسر في العظم أو جرح في الجسم، فان الفعاليات الغذائية التي تجري في الجسم سوف تجبر الكسر وتبرئ الجرح. تلك هي فطرة الأجسام. أما الفطرة الدينية، فيقول الحديث:

«كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه يهوّدانه او ينصّرانه»[125].

فإذ انحرف أي موجود عن مسيره الأصلي انبعثت في أعماقه جهود تحاول إعادته الى مسيره الأول. وبتعبير الفلاسفة: إذا تعرضت الطبيعة للقسر، ظهر فيها ميل يعمل على إرجاعها إلى حالتها الطبيعية.

أي إن هنالك في الكون قوة تعمل على إبعاد الكائن عن الانحراف وتوجيهه الوجهة الصحيحة السليمة.

هذه شواهد تؤكد لنا أن رحمة الله تسبق غضبه، وما المغفرة إلّا مظهر من مظاهر ذلك.

ليست المغفرة ظاهرة استثنائية، بل هي قانون عام مستنتج من غلبة الرحمة على نظام الكون. ومن هذا يتضح أن المغفرة الإلٰهية شاملة تستظل بها جميع الكائنات ضمن حدود قابلياتها وامكاناتها. ومبدأ الفوز بالسعادة والنجاة من العذاب شامل لكل الناجين، ولهذا يقول تعالى في كتابه المجيد:

«من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه» (الانعام: ١٦).

وقد أشار رسول الله (ص) إلى ذلك في خطبة خاطب بها المسلمين في أواخر عمره الشريف، مؤكداً ان هناك عاملين اثنين للنجاة: العمل والرحمة، ففي ذلك يقول (ص):

«ايها الناس إنه ليس بين الله وبين أحد نسب ولا أمر يؤتيه به خيراً أو يصرف عنه شراً إلّا العمل، ألا لايدّعينّ مدّع ولا يتمنين متمن. والذي بعثني

---

١٢٥ ــ «بحار الأنوار» ج ٢ ص ٨٨. طبع كمپاني.

بالحق لا ينجي إلّا عمل مع رحمة، ولو عصيتُ لهويتُ. أللّهم هل بلغت؟»[١٢٦].

وطلب الرسول الأكرم (ص) وسائر الأنبياء والائمة المعصومين (ع) المغفرة من الله، إنما هو رمز لشمول مبدأ المغفرة وكليته. ولهذا قال رسول الله (ص):

«إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله كل يوم مئة مرة»[١٢٧].

علاقة المغفرة بالشفاعة

للمغفرة الإلٰهية قانون و نظام مثل أية رحمة أُخرى. وقد فصّلنا الكلام عن النظام المسيطر على الكون وذكرنا أن اختلاف الكائنات لازمة من لوازم نظام الوجود، وقلنا أيضا إن اختلاف الكائنات فيما بينها ليس اعتبارياً ولا مخلوقاً، وإنما هو ملازم لذاتها ومحقق لهويتها وصورة وجودها، فعدم الاختلاف هو عدمها نفسها، وإذا قلنا بوجودها فلابدُّ أن نقول بوجود الاختلاف بينها.

وممّا قلناه من قبل اتضح أن من غير الممكن سلوك الرحمة سبيلاً لا نظام فيه، ولهذا لابدّ أن تصل مغفرة الله إلى المخطئين والمذنبين عن طريق أرواح الانبياء والأولياء الكبيرة. وهذا أيضا لازمة من لوازم وجود النظام في الكون.

فما دام الوحي الإلٰهي لا ينزل إلّا بالواسطة، ومادام الله لم يجعل جميع الناس أنبياء، ومادامت الرحمة لا تكون إلّا بواسطة، لذلك فإن رحمة المغفرة لا تتحقق إلّا بالواسطة أيضا.

وإذا فرضنا عدم وجود أيِّ دليل نقلي على الشفاعة، لكان علينا أن نثبتها عن طريق البراهين العقلية، كما برهنّا على وجود النظام في الكون.

إن الانسان إذا ما اعترف بوجود المغفرة، فإنه لابدّ أن يعترف أيضا بأنها لا تتمُّ إلّا عن طريق وساطة العقل الكلي أو النفس الكلية، أي ذلك العقل الذي يمثل مقام الولاية الإلٰهية الكلية، فلا يمكن أن يصل الفيض الإلٰهي إلى الكائنات من دون قانون أو نظام.

وإنه لمن حسن الحظ أن يشير القرآن الكريم إلى هذا الموضوع. وإذا ضممنا

١٢٦ ــ «نهج البلاغة» شرح ابن أبي الحديد، ج ٢ ص ٨٦٣.

١٢٧ ــ تفسير «الميزان» ج ١٨ ذيل تفسير سورة محمد.

إلى الآيات الشريفة الروايات الصحيحة، وبخاصة ما عند الشيعة في باب الولاية الكلية لرسول الله (ص) والائمة الأطهار(ع) ومراتب الولاية في الطبقات الأدنى من أهل الايمان، استطعنا أن نقول إن وسيلة المغفرة لا تنحصر في الروح الكلية، بل إن لكل النفوس الكلية والجزئية البشرية، على اختلاف مراتبها، نصيبا في الشفاعة.

وهذا الموضوع من أهم المعارف الاسلامية والقرآنية التي اختص ببيانها المذهب الشيعي عن طريق الأئمة الأطهار وتلامذتهم، وهو من مفاخرهم التي تدل عليهم:

شروط الشفاعة

بعد معرفتنا أن «الشفاعة» هي «المغفرة الإلهية»، وأنها عندما تنسب الى مصدر الخير والرحمة تسمى «المغفرة» وإن نسبت إلى وسائط الرحمة سميت «الشفاعة»، نستطيع أن نقول إن شروط المغفرة هي شروط الشفاعة نفسها.

فإذا حرم شخص من رحمة الله فذلك لعدم قابلية الذاتية، لا بسبب عدم سعة رحمة الله ــ والعياذ بالله ــ فرحمته لا حدود لها، ولكن القابليات تختلف. وهناك من يكون قد فقد كل قابلية لاستقبال الرحمة من الله.

ومن الأمور التي تمنع المغفرة، كما جاء في النصوص الاسلامية، الكفر والشرك بالله. وفي ذلك يقول تعالى:

«إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء»[١٢٨].

فإذا خلت النفس من الإيمان انفصمت رابطة الانسان بالمغفرة، وامتنع نيله هذا اللطف العظيم. وإذا ما ختم بخاتم الكفر على قلب انسان، أصبح ذلك القلب كالإناء المغلق من جميع جوانبه، فلو غطسته في جميع محيطات العالم لما نفذت اليه قطرة من الماء. ومثل هذا الشخص مثل الأرض السبخة التي إذا جرى عليها ماء رحمة الله انبتت بدل الزهر شوكا، فالذنب ليس ذنب الماء، بل ذنب الأرض نفسها.

---

١٢٨ ــ «النساء: ١١٦».

والقرآن يبين سعة رحمة الله على لسان حاملي العرش، فيقول:

«الذين يحملون العرش ومن حوله يسبِّحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربَّنا وسعت كل شيءٍ رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم»[١٢٩].

ندرك من هذه الآية «لا محدودية» رحمة الله، كما نعرف منها الشرط الرئيس في جعل المخلوق جديراً بتقبل المغفرة من الله.

يتبين من الآيات القرآنية الشريفة أن الإيمان بالله شرط لازم من شروط نيل الشفاعة والمغفرة. ولكنَّه ليس الشرط الوحيد. غير أن كل الشروط لايستطيع أحد أن يعددها متيقنا، لأن الله وحده هو العالم بها.

في الآية التي تبشر الناس بالمغفرة، إلّا للمشرك الكافر، نجد شرط «لمن يشاء». وفي آيات الشفاعة نجد شرطاً آخر:

«ولا يشفعون إلّا لمن ارتضى»[١٣٠]، ولكنّ هذين الشرطين يأتيان بمعنى واحد، لكأن القرآن لم يشأ أن يبين جميع الشروط التي يجب توفرها لحصول الشفاعة، وذلك ليجعل القلوب بين الخوف والرجاء.

وهكذا يتضح أن من يزعم أن الايمان بالشفاعة يجرّئ المذنب ليس لديه أي سند علمي يدعم به زعمه.

الشفاعة من الله

الفرق الرئيس بين الشفاعة الحقيقية السليمة والشفاعة المنحرفة المرفوضة هو أن الأُولى تبدأ من الله لتصل إلى المذنب، أمّا الثانية فهي عكس ذلك تماما. في الشفاعة الحقيقية يكون المستشفَع عنده، أي الله، هو المحرك للوسيلة، أي الشفيع، أمّا في الشفاعة الباطلة فيكون المستشفِع، أي المذنب، هو المحرك للشفيع. في الشفاعات الباطلة، التي نجد أمثلة لها في الحياة البشرية، يكتسب الشفيع صفته هذه من المذنب نفسه، لأنه هو الذي استثار الوسيط ليشفع له وجعله وسيلته. ولكن

١٢٩ ــ «المؤمن: ٧».

١٣٠ ــ «الأنبياء: ٢٨».

في الشفاعات الصحيحة التي تصح نسبتها إلى الأنبياء والأولياء والمقرَّبين إلى الله للشفاعة، فإن اختيارهم كشفعاء يكون من جانب الله تعالى.

وبعبارة أُخرى، في الشفاعة الباطلة يقع الشفيع تحت تأثير المستشفع (المذنب)، والمستشفع عنده يقع تحت تأثير الشفيع، وفي الشفاعة الحقة يكون الأمر بعكس ذلك، أي إن المستشفع عنده (الله) هو العلة المؤثرة في الشفيع، الذي يؤثر في المستشفَع له (المذنب) بتأثير من الله وبإرادته. فالسلسلة المحركة في الشفاعة الباطلة هي (المذنب) وفي الشفاعة الحقة هي المستشفَع عنده (الله).

لصدر المتألهين في تفسير سورة «الحديد» قول جميل علمي في الفصل بين الشفاعتين الباطلة والحقة، وفي بيان أن الشفاعة الباطلة لا توجد إلّا في هذه الدنيا، وأن وجودها في العالم الآخر مستحيل.

فهو في معرض بحثه العام، يطرح موضوع العلل الذاتية والعلل التصادفية، والغايات الذاتية والغايات العرضية، ثم يتساءل: كيف تعين العلل التصادفية أحيانا مصير شيءٍ معين، أو تمنع وصوله إلى غايته الذاتية، ولا يصل إلّا إلى غايته العرضية، وإن ذلك يحدث في الكون كله، وليس مقصوراً على البشر؟ ثم لماذا يبقى العالم الآخر بعيداً عن تأثير العلل التصادفية والغايات العرضية؟

إن الإجابات عن هذه التساؤلات موجودة في شروح صدر المتألهين في مواضع مختلفة من تفسيره، فليراجعها من يشاء، إذ إن صدر كتابنا هذا لا يتسع لمثل تلك البحوث العميقة المسهبة.

إذن، الآيات القرآنية التي تقول ان لا شفاعة بدون إذن من الله إنَّما تأخذ هذا الأمر بنظر الاعتبار. وفي القرآن تعبير رائع عن ذلك حيث يقول:

«قل لله الشفاعة جميعا»[١٣١].

هذه الآية تدل دلالة صريحة على صحة الشفاعة وأنها جميعا لله، وذلك لأنه هو الذي يجعل الشفيع شفيعا.

وقد تشمل هذه الآية شفاعات يوم القيامة، وقد تشمل وسائط الرحمة على

---

١٣١ ــ «الزمر: ٤٤».

الإطلاق. أي إنها ربما تشمل كل قانون «العلّة والمعلول» في العالم. ولكن الذي لاشك فيه بالنسبة للشفاعة الأُخروية هو أن المذنب ليس له أن يستفيد من شفاعة الشفيع إلّا باذن الله، وأن الشفيع لايحرك ساكنا من دون إذن من الله.

أما الدليل العقلي على ما ذكرناه فهو ـ بإيجازٍ ـ أنه قد ثبت في الفلسفة الإلٰهية أن «واجب الوجود بالذات واجب من جميع الجهات والحيثيات». أي إنه لمّا لم يكن واجب الوجود بذاته معلولاً لغيره، فإنه كذلك في صفاته وأفعاله لايمكن أن يكون تحت تأثير أية علة، فهو المؤثر المحض، ولا يتأثر بشيءٍ أبداً.

التوحيد والتوسل

يمكن أن نستخلص ممّا مرَّ ملاحظةً مهمة تتعلق بالتوحيد في العبادة، وهي أن التوسل وطلب الشفاعة من أولياء الله لابدَّ أن يكون بواسطة من جعله الله وسيلة لذلك. يقول القرآن الكريم:

«يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآبتغوا إليه الوسيلة».

وعلى وجه العموم، إن التوسل بالوسائل والأسباب ـ مع الأخذ بنظر الاعتبار أن الله هو الذي خلق السبب وهو الذي جعله سبباً، وهو الذي يريدنا أن نستفيد من هذه الأسباب والوسائل ـ ليس فيه ما يجعله شركاً إطلاقا، بل هو التوحيد كل التوحيد. ولا فرق هنا بين الأسباب المادية والأسباب المعنوية ولا بين الأسباب الظاهرة والأسباب الخفية، ولا بين الأسباب الدنيوية والأسباب الأُخروية. كل ما في الأمر هو أن الأسباب المادية يمكن أن نتعرفها بالتجربة العلمية، والأسباب الخفية المعنوية نعرفها عن طريق الدين، أي عن طريق الوحي، طريق الكتاب والسنة.

ثم عندما يتوسل الانسان، أو يطلب الشفاعة، عليه أن يتوجه إلى الله، وعن طريق الله إلى الوسيلة والشفيع، إذ إن الشفاعة الحقة ـ كما قلنا ـ هي أن يكون المستشفع عنده هو الذي جعل الشفيع شفيعا، وإنه يتقدم بشفاعته بإذن من الله وبرضاه، بعكس الشفاعة الباطلة التي يكون التوجه فيها إلى الشفيع مباشرة، لكي يذهب ويستعمل نفوذه وحظوته لدى المستشفع عنده ليقنعه بما يريد المستشفع

له. فإذا كان التوجه إلى الشفيع مباشرة دون التوجه إلى الله، كان ذلك شركاً في العبادة.

إن لفعل الله نظاماً، فإذا أراد أحدٌ أن يتعاضى عن نظام الخلق فإنه ضال. ولهذا يرشد الله المذنبين للذهاب الى بيت رسول الله(ص) وأن يطلبوا المغفرة من الله مباشرة، وأن يتوسلوا بالرسول كي يطلب المغفرة لهم أيضا، كما جاء في القرآن الكريم:

«ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيما»[132]

نعم، لايمكن الاكتفاء بالتقوى والعمل الصالح فحسب، بل لابدَّ من الرحمة، كما قال رسول الله(ص) في أواخر أيامه:

«والذي بعثني بالحق لا ينجي إلّا العمل مع الرّحمة».

أجوبة الاعتراضات

استناداً الى ما قلناه عن شفاعة المغفرة، يمكن تلخيص الإجابات على الاعتراضات المذكورة في النقاط التالية:

١ ــ لا تناقض بين الشفاعة والتوحيد في العبادة، ولا بينها وبين التوحيد الذاتي، وذلك لأن رحمة الشفيع ليست سوى أشعة من رحمة الله. إن الشفاعة والرحمة منبعثتان من الله تعالى. وهذا جواب الاعتراضين الأول والثاني.

٢ ــ الاعتقاد بمغفرة الله لايدفع إلى تجرئة المذنب، بل يُحيي فيه الأمل. ومثله الاعتقاد بالشفاعة، فهو لايشجع على ارتكاب الذنوب. لأننا إذا علمنا بأن شرط شمول المغفرة والشفاعة هو رضى الله ومشيئته، فإن أثر هذا الاعتقاد سيكون في إنقاذ القلوب من شر اليأس والقنوط، ووضعها بين الخوف والرجاء وهذا هو جواب الاعتراض الثالث.

٣ ــ الشفاعة نوعان: باطلة وصحيحة: إن ورود آيات في القرآن تنفي الشفاعة، وآيات أُخرى تثبتها، دليل على أن هنالك نوعين من الشفاعات. والقرآن

١٣٢ ــ «النساء: ٦٤».

يسعى إلى حرف الأذهان عن الشفاعة الباطلة، وتوجيهها نحو الشفاعة الصحيحة الحقة. وهذا جواب الاعتراض الرابع.

٤ ــ لا تناقض بين الشفاعة والعمل، لأن العمل هو العلّة المنفعلة، ورحمة الله هي العلّة الفاعلة. وهذا جواب الاعتراض الخامس.

٥ ــ الشفاعة الصحيحة لا تعني أن الله قد وقع تحت أي تأثير خارجي، لأنها تسير من الأعلى إلى الأسفل. وهذا جواب الاعتراض السادس.

٦ ــ ليس ثمة استثناء ولا (انعدام عدالة) في أيٍّ من الشفاعة والمغفرة، لأن رحمة الله تعالى غير محدودة، ولا يُحرم منها أحد إلّا إذا لم يكن هو جديراً بها لقصوره أو تقصيره. وهذا جواب الاعتراض السابع[١٣٣].

في ختام بحث الشفاعة، ولإتمام الفائدة لمصلحة القرّاء الكرام، نورد مقالة لصاحب تفسير «الميزان»، المرحوم العلامة الطباطبائي (قدس الله نفسه الزكية) ليتبيّن للقراء مدى علو كعب أفكار الفلاسفة والحكماء الشيعة وعمق آرائهم التي تعتبر من مفاخر عالم الاسلام، وليعلموا أن المشاكل التي لم يستطع حلها أمثال ابن تيمية وابن القيم وابن عبدالوهاب، فتخبطوا في متاهات أوصلتهم إلى طرق مسدودة، فراحوا يتفوهون بتلك الترهات والأباطيل، منحدرين في زلّاتهم وهفواتهم، استطاع هؤلاء العلماء المتعمقون أن يجدوا الأجوبة الصحيحة دون عناء، و أن يحلُّوا تلك المشاكل.

يخاطب صاحب «الميزان» (ره) أُولئك الذين ساروا في طريق الإفراط، واعتبروا حتى الاستشفاء وطلب الحاجة في حرم الإمام نوعاً من الشرك، فيقول:

«شفاء المرض وقضاء الحاجات بيدالله، لابيد الإمام... ولتوضيح ذلك لابدّ من إيراد المقدمة التالية: إن قانون العلة والمعلول قانون عام يسري على جميع كائنات العالم، فكل حدث أو معلول محتاج إلى علة تظهره إلى الوجود. وعليه، فالعالم عالم الأسباب، والعلة الحقيقية والمستقلة في تأثيرها في الجميع هوالله تعالى،

---

١٣٣ ــ «العدل الإلهي» ٢٥٧.



إذ «لو اجتمعت كل سيوف الدنيا على أن تقطع عرقا من العروق ما كان لها ذلك إلّا بمشيئة الله».

والعلة الأُخرى المستقرة بين الله والمعلول الإمكاني هي «الواسطة» التي يكون فعلها وأثرها هما فعل الله نفسه وأثره.. إن «توسط» شيء في إيصال فيض الوجود إلى المعلول شيءٌ والشرك والاستقلال في التأثير شيء آخر: إن مثل إسناد فعل إلى «الواسطة» أو «صاحب الواسطة» مثل انسان يمسك القلم بيده ويكتب، فلاشك أن كلا القلم واليد قد اشتركا في فعل الكتابة مع الانسان، فمع أن فعل واحد، ولكن يمكن نسبته إلى الثلاثة، ولكن الانسان هو صاحب التأثير المستقل في الكتابة، بينما القلم واليد «واسطتان» لاشريكان.

والقرآن في جميع الأعمال والآثار التي يسندها إلى المخلوقات، وجميع المناقشات التي يدخلها بهذا الشأن، يتقبل قانون العلّة والمعلول العام. ولكنه في الوقت نفسه يحتفظ بالاستقلال في التأثير لله تعالى، كما في الآية الشريفة:

«وما رميت إذ رميت ولكنّ الله رمى»

و «قاتلوهم يعذبهم اللهُ بأيديكم»[١٣٤]

و «إنما يريد الله ليعذبهم بها»[١٣٥]

وبناءً على ما ذكرنا عن «الوسيلة» و «الواسطة» لايكون طلب الحاجة من الإمام شركاً، إلّا إذا اعتبر صاحب الحاجة الإمام مستقلاً في تأثيره وأنه ذاتي القدرة، أما إذا اعتبر التأثير من الله، وأن الإمام ليس سوى «واسطة» و «وسيلة»، فإن دعوة الواسطة، في تلك الحالة، تكون في الواقع كدعوة صاحب الوسيلة والواسطة، بمثلما أن إطاعة الواسطة هي إطاعة لصاحب الواسطة، كما جاء في القرآن الكريم:

«من يطع الرسول فقد أطاع الله»[١٣٦].

---

١٣٤ ــ «التوبة: ١٤».

١٣٥ ــ «التوبة: ٥٥».

١٣٦ ــ «النساء: ٨٠».

وكما جاء فيه أيضا بشأن الملائكة:

«لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون»[١٣٧] أي إنهم ليست لهم إرادة مستقلة، وما إرادتهم إلّا من إرادة الله.

وبلغة بسيطة: لما كان الأنبياء و الأولياء من المقرّبين عندالله ولهم عنده منزلة وكرامة، فإذا جعلهم أحد «واسطة» لنيل الفيض الإلهي، وعن طريقهم طلبوا قضاء حاجاتهم من الله، فإن ذلك لا يجمعه مع «الشرك» جامع، ولا يناقض «التوحيد» إطلاقاً. إن أي شخص عاقل لايمكن أن يعتبر «الوسيلة» أو «الواسطة» شريكا، إذ إن الوسيلة والواسطة رابط يربط المتوسل بالمتوسل إليه، و «الرابط» بالطبع وبحكم العقل، ليس هو «المقصود»، وإنَّ «الطريق» ليس هو «المقصد» الذي يسار اليه. فمثلا إذا تشفع أحد عند غني لصالح أحد الفقراء و حصل له على بعض المال، فما من عاقل يمكن أن يقول إن ذلك المال كان عطية الغني والشفيع كليهما، بل يقول إن الغني هو صاحب العطاء، والشفيع هو «الواسطة» و «الرابط» فحسب[١٣٨].

الوهابيون وتكفير المسلمين

إن من أخطر الأفكار الوهابية التي كانت لها نتائج سوء مريرة، واستعملها الاستعماريون كأخطر سلاح بيدهم، هو القول بتكفير سائر المسلمين واعتبارهم مشركين. يرى الوهابيون أنهم هم وحدهم الموحدون ومن أهل التوحيد، وأن سائر المسلمين قد أشركوا وكفروا. إنهم، لإغراقهم في التعصب والجهل والضلال والانحراف يعتبرون بدعهم هي الدين والهداية، وحكموا بضلالة غيرهم من المسلمين وبكفرهم. وقد أنزل هذا، عملياً، أكبر الضربات بالأُمة الإسلامية، وقام كأكبر حجر عثرة في طريق وحدة المسلمين واتحادهم وبوجه إعلاء كلمة الله والاسلام.

ونحن لكي نبين أن هذا الاسلوب في التفكير لاأساس له، بل إنه

---

١٣٧ ــ «الأنبياء: ٢٧».

١٣٨ ــ تفسير «الميزان» ج ١ ص ٢٩٥.

لاينسجم مع القرآن ولا مع السنة، بل هو ضد القرآن والاسلام، وله أضرار كبيرة وخطرة ومهلكة، نورد بحثاً موجزاً بهذا الشأن، ثم نشرع بذكر فتاوى علماء السنة والشيعة في هذا الموضوع، وفي الختام نشير إلى المصائب والأضرار الناتجة من هذا العمل القبيح والفكر المنحرف.

إن الوهابيين، بنظرتهم الخاطئة إلى التوحيد القرآني وبأُسلوب تفكيرهم الغلط في المسائل العقائدية، حكموا على المسلمين، إخوانهم في الدين، بأنهم كفار مشركون، ويواجهونهم في الأماكن المقدسة التي تقع تحت سلطتهم، كمكة والمدينة، بالضرب والشتم والاعتداء، على العكس تماما ممّا يرضاه الله ورسوله. إن هدفهم هو القضاء على الاسلام، إذ إن التهم التي ينسبونها لغيرهم من المسلمين، والظلم الذي ينزلونه بهم، لاهو موجود في القرآن الكريم ولا في السنة الشريفة، بل هو في الحقيقة خلاف الكتاب والسنة.

والعجيب في أن هؤلاء الوهابيين يعتبرون أنفسهم، مع كل ذلك، من أهل السنة، أي من الذين يتبعون سنة رسول الله صلّى الله عليه وآله في السلوك والعمل، بينما سنة الرسول وشريعته التي جاءت لعموم المسلمين، وكذلك سيرة المسلمين والعلماء الاعلام وأئمة المذاهب الاسلامية، تتناقض مع ما يحمله هؤلاء من أفكار، وترفضها.

بل إن ابن تيمية نفسه، في الصفحة ١٩ من كتابه «منهاج السنة»، وفي الرد على الذين ينتقدون إخوانه من اهل السنة، يقول:

«لأكثر هذه الامور أعذار شرعية تخرجها من صورة الإثم وتجعلها من الحالات الاجتهادية التي إن أصاب فيها المجتهد كان له أجر حسنتين، وإن أخطأ كان له أجر حسنة واحدة. إن أكثر ما نقل عن الخلفاء الراشدين ممّا هو مسلّم به من هذا القبيل». [١٣٩]

وابن تيمية يستند في مقولته هذه الى حديث ورد في «صحيح» البخاري

١٣٩ ــ «تجزيه وتحليل عقائد فرقة وهابي» تأليف السيد محمدحسن القزويني وترجمة علي دواني، نشر قدر، ص٣٦.

عن عمرو بن العاص أنه قال: إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر» [١٤٠]

وفي الصفحة ٢٠ من كتاب ابن تيمية المذكور يقول: ان العلماء القدامى ومراجع الفتوى، مثل أبي حنيفة والشافعي والثوري وداود بن علي وغيرهم يرون أن المجتهد الذي يخطئ في بيان الحكم الشرعي ليس آثما، لا في الأصول ولا في الفروع، حسبما نقل عنهم ابن حزم وغيره.

لذلك فقد كان أبوحنيفة والشافعي وغيرهما يقبلون شهادة الذين يتبعون أهواءهم من غير الفرقة «الخطابية»، ويجيزون الائتمام بهم في الصلاة، مع أن شهادة الكفار لا تقبل عند المسلم، ولا تجوز الصلاة خلفهم.

قال السابقون: هذا رأي كبار الصحابة والتابعين وأئمة الدين، فهم لم يكفروا أي مسلم ولم يعتبروهُ فاسقاً، وإذا أخطأ المجتهد لم يروه آثما، لا في المسائل العلمية ولا في الفروع الفقهية [١٤١].

وابن حزم الاندلسي في الصفحة ٢٤٧ من أواخر الجزء الثالث من كتابه «الفصل» الذي يتناول فيه العقائد والمذاهب الاسلامية، يقول: «وذهبت طائفة إلى أنه لا يكفر ولا يفسّق مسلم بقول قاله في اعتقاد أوفتيا، وأن كل من أجتهد في شيء من ذلك فلان بما رأى أنه الحق فإنه مأجور على كل حال، إن أصاب الحق فأجران، وإن أخطأ فأجر واحد» [١٤٢].

الوهابيون وانتهاكهم حرمة المسلمين في أرواحهم وأموالهم وأعراضهم

[واستناداً إلى هذه الأقوال، نسأل الوهابيين الذين يعتبرون أنفسهم من

---

١٤٠ ــ صحيح مسلم للإمام أبي الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيشابوري، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي. دارإحياء التراث العربي. بيروت، ج٣ ص١٣٤٢، الحديث ١٥. وفي مسند الإمام أحمدبن حنبل، ج٢ ص١٨٧، طبع دارالفكر.

١٤١ ــ «تجزيه و تحليل» ص ٣٥.

١٤٢ ــ «الفصل في الملل والأهواء والنحل» للامام أبي محمدعلي بن أحمد المعروف بابن حزم الظاهري، ج٢ ص٢٤٧، باب «الكلام فيمن يكفّر ومن لا يكفّر» طبع دار المعرفة. بيروت.

أهل السنة (وهم يقبلون جميع أُولئك العلماء ويستندون إلى كتبهم): إذا كان ما قاله علماؤكم هؤلاء هو الأصل والأساس في أُمور دينكم، فبأي دليل شرعي تكفرون سائر طوائف المسلمين الذين يتفقون معكم في السلوك ، وتتهمونهم بالشرك ، وتبيحون تعذيبهم بشتى أنواع التعذيب، وتعتبرون بلادهم من بلدان الكافر الحزبي؟ مع أن الله تعالى يقول: «... إنَّما المؤمنون إخوة...» (الحجر: ١٠)

ويقول: «... واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألَّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا...» (آل عمران: ١٠٣)

ويقول: «ونزعنا ما في صدورهم من غلٍّ إخوانا على سرر متقابلين» (الحجر: ١٥)

ويقول: «والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات...» (البروج: ١١)

ويقول: «فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون» (التوبة: ١١)

والأحاديث الشريفة الصحيحة تقول: إذا شهد أحد أن لا إله إلّا الله وأنَّ محمداً رسول الله فقد صان دمه، وماله، وعرضه.

وجاء في صحيح البخاري عن عبدالله بن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وآله عندما بعث معاذ بن جبل على اليمن قال له: «إنك تقدم على قوم أهل كتاب (اليهود والنصارى) فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا فعلوا فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم الزكاة من أموالهم وتُردُّ على فقرائهم، فإذا أطاعوا بها، فخذ منهم وتوقَّ كرائم أموال الناس»[١٤٣].

وجاء في صحيح البخاري، في (باب فضائل علي عليه السلام): «عندما دفع رسول الله (ص) الراية بيد علي (ع) في حرب خيبر، قال علي: يا

١٤٣ ــ صحيح البخاري، ج ٣ ــ ٢ ــ ١، ص ١٤٧، باب «لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة». طبع دار إحياء التراث العربي. بيروت.

رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا. فقال: أُنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من أن تكون لك حمر النعم»[١٤٤].

أي إنهم إذا نطقوا بالشهادتين أصبحوا ودماؤهم مصانة لا تجوز إراقتها.

ويروي البخاري أيضا عن ابن عباس أنّ وفد عبدالقيس لما أتوا النبي (ص) أمرهم بالإيمان بالله وحده وقال:

«أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟»

قالوا: ألله ورسوله أعلم.

قال: «شهادة أن لا إلٰه إلّا الله وأنَّ محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وأن تُعطوا من الغُنْمِ الخمس...»[١٤٥].

والآن، أنتم أيها المؤمنون بكتاب الله والعارفون بأحكام شريعة سيدالمرسلين، أليس عداء الوهابيين لأهل الحق وإخوانكم المسلمين اعتداء على حدود الله وأحكامه؟

وبديهي أنه لاحاجة للقول بأن الدين الاسلامي وما جاء به محمد المصطفى صلّى الله عليه وآله من قبل الله، يقفان على طرفي نقيض مع هذه الأعمال الفظة الخشنة التي يرتكبها الوهابيون.

فلتسألوهم: «أفحكم الجاهلية يبغون؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون؟»

وعليه، فإن من يصدر حكماً من عنده يكون قد اتبع هواه، وهذا ما حذرالله رسوله منه، حيث قال:

«فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله» (ص: ٢٦)

فمن خالف أمر الله هذا يكون قد عصاه، وخاصة بعد أن يكون الحق قد

---

١٤٤ ــ المصدر نفسه، ج ٢، ج ٥ ص ٢٢، باب «مناقب علي بن ابي طالب»، الحديث الاول.

١٤٥ ــ المصدر نفسه، مج ١، ج ١ ص ٢١، باب «اداء الخمس من الايمان»، الحديث الاول.

تجلّى له و أدلة الحقيقة قد تبيَّنت أمامه»[146].]

الوهابيون يعصون أمرالله

[وعليه، فإن معيار اتباع الحق هو الإذعان لما أمر به الله في كتابه، وإلّا فإن كل فرقة ترى أنها وجدها على حق، وأنها هي التي تعمل بالعدل والإحسان، وهو السلوك السائد عادة بين الجهلاء من الناس وإن من السلوك السائد عندالوهابيين هو أن زعيمهم الديني يحكم على وفق ما جرت عليه العادات، لا على وفق ما جاء في الكتاب والسنة. ولهذا تنطبق عليهم الآية الشريفة:

«... فإن تولوا فاعلم أن الله يريد أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون»[147].

والآية:

«ومن لم يحكم بما أنزل الله فأُولئك هم الفاسقون»[148].

وقد جاء هذا عن الذين لا يجيزون عصيان أمر الله، أمّا إذا أجازوا ذلك فإنهم كُفَّار، كما يقول سبحانه وتعالى:

«ومن لم يحكم بما أنزل الله فأُولئك هم الكافرون»[149].

وحتى لو فرضنا أن هناك نزاعاً بين المسلمين وأنهم اختلفوا فيما بينهم على أمرٍ ما، فإنَّ عليهم أن يرجعوا في ذلك إلى الله ورسوله، كما جاء في كتاب الله:

«فإن تنازعتم في شيء فردُّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر...»[150].

وبناءً على ذلك، إذا سخرت طائفة من معتقدات طائفة أُخرى، أو إذا سبَّتها ولعنتها، واتهمتها بالكفر والإلحاد، فإن ذلك يكون تفريقاً لوحدة المسلمين،

---

١٤٦ ــ «الفصل» ص ٣٨.

١٤٧ ــ «المائدة: ٤٩».

١٤٨ ــ «المائدة: ٤٧».

١٤٩ ــ «المائدة: ٤٤».

١٥٠ ــ «النساء: ٥٩».

الأمر الذي نهى عنه الله في هذه الآية:

«إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيءٍ...»[151].

ويقول:

«يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتُنَّ إلّا وأنتم مسلمون»[152].

ويقول:

«ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم»[153].

هكذا نجد أن الله تعالى يأمر المؤمنين أن يتمسكوا بحبل الله، وأن يتجنَّبوا التفرق، فقد فسر «حبل الله» بأنه دين الله، ودين الله هو الاسلام:

«إن الدين عندالله الاسلام»[154].

والاسلام هو الإيمان، والإيمان هو إعلان الشهادتين: لا اله إلّا الله، ومحمد رسول الله.

فللمسلمين، إذن، دين واحد، وقد وضع الله للمسلمين حدوداً لايجوز لهم أن يتجاوزوها. من ذلك أنه حرَّم عليهم ظلم إخوانهم المسلمين، وانتهاك حرمة أموالهم وأرواحهم وأعراضهم.

جاء في صحيح البخاري أن النبي (ص) قال في حجة الوداع:

«... أيها الناس إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا. ألا هل بلَّغت، اللّهم اشهد...».

وفي صحيح البخاري أيضا من عدة طرق عن رسول الله (ص) أنه قال في حجة الوداع:

---

١٥١ ـ «الأنعام: ١٥٩».

١٥٢ ـ «آل عمران: ١٠٢».

١٥٣ ـ «آل عمران: ١٠٥».

١٥٤ ـ «آل عمران: ١٩».

«... أيها الناس إنّما المؤمنون إخوة ولا يحل لامرىءٍ مال أخيه إلّا عن طيب نفس منه، ألا هل بلّغت، ألّلهم اشهد. فلا ترجعن بعدي كفّاراً يضرب بعضكم رقاب بعض...»

نستنتج من كل هذا أن الوهابيين يعملون بخلاف الكتاب والسنة ــ لأن الكتاب والسنة يقولان: يجب أن يتضامَّ المسلمون بالمحبة والتعاطف، لا أن يقع بينهم الشقاق ويخاصم بعضهم بعضاً ــ ويَسِمُون المسلمين بالكفر، ويعتدوا عليهم بالضرب والشتم. هذا كل ما نريد أن نقوله للوهابيين:

«تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق»...][155].

موقف الاسلام الصريح

والآن، لكي يزداد القارئ الكريم معرفة بالموضوع، ولأهميته ايضا، نباشر بإيراد البحث المسهب العميق الذي وعدناه به في بداية هذا الكتاب حول قضية التكفير في نظر القرآن والروايات وعلماء الفريقين، آملين أن ينتفع به المسلمون كافة.

بالرجوع الى النصوص الإسلامية، يتبين لنا أن من ادَّعى الإسلام ونطق بالشهادتين، لايجوز بعد ذلك تكفيره. وهناك روايات وأحاديث كثيرة بهذا الشأن في كتب كلا الفريقين الأصيلة، تستقبح كلّها التكفير وتنهى عنه، بل لقد اعتبر بعض الروايات كل من يكفِّر المسلمين كافراً. وفيما يلي بعض تلك الآيات والأحاديث:

قال الله تبارك وتعالى:

«ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا»[156].

وقد جاء في أسباب نزول هذه الآية أن رسول الله صلّى الله عليه وآله لما رجع من غزوة خيبر وبعث أُسامة بن زيد في خيل إلى بعض قرى اليهود في ناحية فدك ليدعوهم إلى الاسلام، كان رجل يقال له مرداس ابن نهيك الفدكي في

---

١٥٥ ــ «الفصل» ص ٣٨.

١٥٦ ــ «النساء: ٩٤».

بعض القرى، فلما أحس بخيل رسول الله (ص) جمع أهله وماله في ناحية الجبل وأقبل يقول: أشهد أن لا إله إلآ الله وأن محمداً رسول الله، فمر به أسامة بن زيد فطنعه فقتله. وأخذ امواله فلمّا رجع إلى رسول الله أخبره بذلك، قال رسول الله (ص): قتلت رجلا شهد أن لا إله إلآ الله وأني رسول الله؟ فقال: يارسول الله قالها تعوُّذاً من القتل، فقال رسول الله (ص): «فهلاّ شققت قلبه» اي إنك لم تطلع على مافي قلبه ولم تقبل قوله بلسانه فعسى أن يكون مسلماً حقيقياً.»[١٥٧]

هنالك رواية بهذا المضمون وردت في صحيحي البخاري ومسلم، جاء فيها: قال أسامة بن زيد «إن رسول الله (ص) أرسلنا الى «الحرقة» حيث هاجمنا أهلها وهزمناهم، وقمت أنا وأحد الأنصار بتعقيب أحد الفارين، وما أن أمسكناه حتى صاح: «لا إله إلاّ الله» فتركه الأنصاري، ولكني هاجمته بالرمح وقتلته. وعند رجوعي كان الخبر قد بلغ رسول الله (ص)، فقال لي: يا أسامة، أقتلته بعد ان اعترف بوحدانية الله؟ فقلت: كان يريد بذلك أن ينجو بحياته من القتل. فكرر النبي (ص): قتلته بعد أن قال لا إله إلاّ الله؟ وأخذ يكرر ذلك حتى تمنيت لو لم أكن قد أسلمت قبل ذلك.[١٥٨]

لقد أدرك أسامة من الحالة التي انتابت رسول الله (ص) أن كل أعماله من صلاة وصوم وجهاد، ... الخ لن تكفي لغسل هذا الجرم عنه، وأنه يخشى أن لايغفر الله له، لذلك تمنّى لو أنه أسلم بعد الحادث، لاقبله.

يؤخذ من هذه الرواية أن من يظهر الاسلام (ينطق بالشهادتين) لايجوز تكفيره. إننا لو لم يكن لدينا سوى هذه الآية وهذه الرواية، حول عدم تكفير المسلم و وجوب تبادل الاحترام بين الفرق والمذاهب الاسلامية، لكان فيها الكفاية، إذ إن من يجعل الشهادتين ملجأ له لابدّ أن يحترم. بديهي أن من ينطق بها دون أن

١٥٧ ــ «البرهان في تفسير القرآن» تأليف العلامة الخبير السيدهاشم الحسيني البحراني، ج١ ص٤٠٦.

١٥٨ ــ المصدر نفسه.

يكون هذا هدفه، يكون جديراً باحترام أكبر، ولكنهما كلاهما لايجوز أن يتعرضا للعداء والسب والشتم واللعن والطرد والتفسيق والتكفير. إلّا أن هناك الكثير من أمثال هذه الروايات، بل وأكثر صراحة منها، يرويها الفريقان، من ذلك ما قاله رسول الله صلى الله عليه وآله:

«من كفّر مؤمنا صار كافراً» [١٥٩].

وقال الإمام الباقر(ع):

«ما شهد رجل على رجل بكفر قطُّ إلّا باءَ به أحدهما، إن كان شهد (به) على كافر صدق، وإن كان مؤمنا رجع الكفر إليه، فإيّاكم والطعن على المؤمنين» [١٦٠].

وبهذا المضمون جاء في كنز العمال عن رسول الله (ص):

«أيُّما امرئ قال لأخيه: كافر، فقد باء بها أحدهما إن كان كما قال، وإلّا رجعت عليه» [١٦١].

وفي ذلك يقول الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع):

«ملعون ملعون من رمى مؤمنا بالكفر، ومن رمى مؤمنا بالكفر فهو كقتله» [١٦٢].

كذلك في كنز العمال عن رسول الله (ص):

«إذا قال الرجل لأخيه: كافر، فهو كقتله، ولعن المؤمن كقتله» [١٦٣].

وإذا عدنا الى الماضي نطالع التاريخ الاسلامي والمذاهب الاسلامية، للاحظنا أن التفسيق والتكفير كثيراً ما أدى الى قتل بريء أو أبرياء.

---

١٥٩ ــ «الموطا» لمالك.

١٦٠ ــ «أُصول الكافي» ج٢ ص ٣٦٠.

١٦١ ــ «كنز العمّال» ٨٢٧٢/٦٣٥ عن صحيح مسلم، والاحاديث ٨٢٦٦ و٨٢٧٣ و ٨٢٨١ و ٨٢٧٠ تفيد المضمون نفسه.

١٦٢ ــ «سفينة البحار» للقمي (ره) مادة «كفر».

١٦٣ ــ «كنز العمال» ٨٢٦٤/٦٣٥.

جاء في الروايات أنه في يوم القيامة يُؤتى برجل أدى فروضه في الدنيا خير أداء، ولكنه عند الحساب يجد في صحيفة أعماله أنه قد أرتكب إثما عظيماً، وعند اعتراضه يقال له: هذه حصتك من دم فلان. فيقول إنني لم أقتل أحداً، فيأتيه الجواب: إنك سمعت عبارة عنه فأخذت تنشرها وكان من آثار ذلك أنها أدت الى قتله. فأنت بنقلك ما نقلت عنه أصبحت شريكا في قتله[١٦٤].

وبمطالعة روايات الفريقين، التي ذكرنا بعضها، نستنتج أن التفسيق والتكفير والسب واللعن والاحقاد الجاهلية والتناحر الطائفي وما إلى ذلك ممّا لم يبرح منذ صدر الاسلام حتى اليوم يشغل صفحات كثيرة من التاريخ، إنما هي أمور محرمة وتتناقض تناقضاً صريحا مع المبادئ الاسلامية، والروايات يذكرها الفريقان. لاشك انه يتطلب الكثير من الجرأة أن يعمد مسلم إلى اتّهام مسلم آخر بعدم التزامه القلبي الاصول والمعتقدات الدينية، أو استحسان أو استهجان أعمال بعض الصحابة، أو حتى اعتبار الاختلافات المذهبية أو الاقتصادية أو المنظورات الاسلامية سببا لتفسيق مسلم آخر وتكفيره. إن ذلك في الحقيقة انحراف عن الاسلام.

ولكن الذي يؤسف له أن نجد أتباع الاسلام، نتيجة لجهلهم بأُصول الاسلام ومبادئه، يسلكون سلوكاً مستهجنا بعض مع بعض، ذلك السلوك غير المنطقي الذي يبعث على التفرقة والتشتت في شيع متنافرة، بحيث راحت كل فرقة تعادي الفرقة الأُخرى فتسبها وتلعنها وتكفرها.

روايات غير مباشرة

بالإضافة إلى الروايات التي تنهى نهياً صريحاً المسلمين عن تكفير بعضهم بعضاً وتبيِّن الآثار السلبية لذلك ،هنالك روايات أُخرى تؤكد حرمة تكفير المسلم في نظر الاسلام ضمن النهي عن أمور أُخرى، مثل: هتك شخصية المؤمن، الافتراء على المؤمن، سب المؤمن ولعنه، تحقير المؤمن، هجو المؤمن، لوم المؤمن، إهانة المؤمن وايذائه، الاستهزاء بالمؤمن، كشف عيوب المؤمن، معاداة المسلمين، وغير ذلك من

١٦٤ ــ «بحار الأنوار» ج٧ ص٨٦ طبع بيروت.

الأمور المنهي عنها، وهي كلها تؤكد حرمة التكفير ضمنا، ممّا سوف نشير إلى بعضه بصورة موجزة.

هتك شخصية المؤمن

الاسلام يحترم كرامة المسلم ونفسه وماله وعرضه. يقول رسول الاسلام صلى الله عليه وآله:

«إن الله حرَّم على المسلم دمه و ماله و عرضه وأن يظن به السوء».[165]

فمن يفعل ذلك يرتكب إثما كبيراً وله في الآخرة عذاب أليم. وعليه فإن هتك حرمات المؤمن حرام بأي شكل كان، بالاستهزاء، أو بالاستخفاف، أو باللوم، أو بالإهانة، أو باللعن، أو بالتكفير، لأن هذه كلها تعتبر هتكاً لشخصية المؤمن.

قال الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام:

«من روى على مؤمن رواية يريد بها شينه وهدم مروته ليسقط من أعين الناس أخرجه الله من ولايته إلى ولاية الشيطان، فلا يقبله الشيطان»[166]

فأيّ رواية على مؤمن أقبح من تكفيره وإهانة شخصيته في عقيدته؟!

الافتراء على المؤمن

الافتراء، أو البهتان، هو أن تنسب الى الآخرين ما ليس فيهم. وهذا ما ينهى عنه الاسلام أشد النهي، ويعده من بين الذنوب الكبيرة. وللافتراء أنواع متعدّدة، أقبحها نسبة الكفر إلى المؤمن، كما جاء في الأحاديث. قال رسول الله صلّى الله عليه وآله:

«من بهت مؤمنا، أو مؤمنة، أو قال فيه ما ليس فيه، أقامه الله عزوجل يوم القيامة على تلٍّ من نار حتى يخرج ممّا قال فيه»[167].

وقال الامام جعفر الصادق (ع):

---

١٦٥ ــ «المحجة البيضاء» ج٥ ص ٢٦٨.

١٦٦ ــ «أصول الكافي» ج٢ ص ٣٥٨.

١٦٧ ــ «بحار الأنوار» ج ١٦ ص ١٧٠، «كنز العمال» ج٣ ص ٥٦٦.

«من اتهم أخاه في دينه فلا حرمة بينهما، ومن عامل أخاه بمثل ما عامل به الناس فهو بريء ممّا ينتحل»[168].

سب المؤمن ولعنه

تبادل التهم القبيحة بين المؤمنين، و الترامي بالكلمات النابية، كالخائن، والفاسق، والفاجر، والملعون، وأكبرها اتهام المؤمن بالشرك ، وأمثال ذلك ممّا يتضمن تحقير المسلم وإهانته، حرام. وهناك أحاديث كثيرة في النهي عن ذلك.

قال الإمام محمدالباقر (ع):

«سباب المؤمن فسوق، وقتاله كفر، وحرمة ماله كحرمة دمه، ولعن المؤمن كقتله»[169].

فتاوى العلماء ضد تكفير المسلمين

نورد هنا نبذة من فتاوى أئمة المذاهب وكبار علماء الاسلام، لكي يتبين أن إيجاد جو من التكفير والافتراء في المجتمعات الاسلامية ليس له ما يؤيده في الاسلام، فلا هو ينسجم مع روح التعاليم الاسلامية المحيية، ولا مع الآيات والأحاديث، ولا مع فتاوى علماء الاسلام.

فتاوى علماء الشيعة

لقد ورد على ألسنة كبار علماء الشيعة، مثل الشيخ الصدوق (ره) في «الهداية»، والشيخ المفيد(ره) في «أوائل المقالات»، والمحقق(ره) في «الشرايع»، وصاحب الجواهر(ره) في «جواهر الكلام»[171]، وآية الله الحكيم(ره) في «مستمسك العروة الوثقى»[172]، والآملي (ره) في «مصباح الهدى»[173]،

---

١٦٨ ــ «أُصول الكافي» ج٢ ص ٣٦١.

١٦٩ ــ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٣٦٠، «كنزالعمال» ج٢ ص ٥٩٢.

١٧٠ ــ «جوامع الفقيه» ص ٤٧.

١٧١ ــ «جواهر الكلام» ص ٥٨.

١٧٢ ــ «مستمسك العروة الوثقى» ج٢ ص ١٢٣.

١٧٣ ــ «مصباح الهدى» ج١ ص ٣٦١.

والعلامة المجلسي (ره) في «بحارالأنوار»[١٧٤]، والحاج أقا رضا الهمداني(ره) في «مصباح الفقيه» أن: من نطق بالشهادتين فهو مسلم وتنطبق بحقه جميع الأحكام الاسلامية الاجتماعية والحقوقية والجزائية.

وكمثال على ذلل، قال الشيخ الصدوق (ره) في «الهداية»:

«الاسلام هو الإقرار بالشهادتين، وهو الذي تحقن به الدماء والأموال، فمن قال: لا إله إلّا الله، محمدرسول الله، فقد حقن ماله ودمه»[١٧٥].

فمن كانت هذه فتواه لايمكن أن يجيزتكفير من يُقِرُّ بالشهادتين.

فتاوى علماء أهل السنة

فتوى الأشعري: يقول أحمد بن زاهر السرخي، وهو من كبار تلامذة الامام أبي الحسن الأشعري: قبيل وفاته (أي الاشعري) كان في بيتي ببغداد، فأمرني أن استدعي تلامذته وأتباعه للحضور، وعندما التام جمعهم، قال يخاطبهم:

«إشهدوا عليَّ أنني لا أكفر أحداً من أهل القبلة بذنب لأنهم كلهم يشيرون إلى معبود واحد، والإسلام يشملهم ويعمهم»[١٧٦].

فتوى الشافعي: صرح شيخ الاسلام المخزومي في «الرسالة»:

«لا أُكفِّر أهل الأهواء بذنب»[١٧٧].

وفي موضع آخر يقول:

«لا أُكفِّر أحداً من أهل القبلة بذنب»[١٧٨].

بل إن الشافعية مجمعون على عدم تكفير الخوارج. فإذا كان الخوارج ــ الذين أحلوا اراقة دماء المسلمين، وأباحوا أموالهم، وكفروا أصحاب محمدصلّى عليه وآله ــ مسلمين، فكيف بأصحاب المذاهب الأُخرى؟

---

١٧٤ ــ «بحار الأنوار» ج ٦٨.

١٧٥ ــ «جوامع الفقيه» ص ٤٧.

١٧٦ ــ «الفصول المهمة» ص ٢٩.

١٧٧ ــ المصدر نفسه.

١٧٨ ــ المصدر نفسه.

يؤكد ابن عــابدين في كتابـه «رد المحتار» أن الذين يلعنون الصحابة وفق اجتهادهم مسلمون، ويقول:

«تكفير هؤلاء يخالف إجماع الفقهاء، ويناقض ما جاء في كتاباتهم، وما ورد من أقوالٍ في تكفيرهم لم يأت من الفقهاء، بل من غيرهم، فهي لاقيمة لها»[179].

فتوى أبي حنيفة وغيره

قال ابن حزم، وهو من أئمة الظاهرية: «... وذهبت طائفة إلى أنه لا يكفر ولا يُفسَّق مسلم بقول قاله في اعتقاد أو فتيا... وهذا قول ابن أبي ليلى، (وهو من معاصري أبي حنيفة) وأبي حنيفة، والشافعي، وسفيان الثوري (وهو من معاصري ابي حنيفة أيضا) وداود بن علي (وهو من أئمة الظاهرية أيضا) وهو قول كل من عرفنا له قولاً في هذه المسألة من الصحابة ولا نعلم فيه خلافا في ذلك...»[180].

وعندما يُسأل شيخ الاسلام تقي الدين السبكي حول تكفير أهل الهوى والبدع، يقول في جوابه ما مضمونه:

«إعلم ياأخي أن إبداء الرأي في تكفير أهل الإيمان أمر صعب، فمن سكن الإيمان في قلبه يستعظم تكفير أهل الهوى والبدع، لأنهم يقولون: لا إله إلاّ الله، محمدٌ رسول الله. تفكير الآخرين عمل مخوف خطير...»[181].

وفي موضع آخر، عندما يسألونه عن الغلاة وأهل البدع وأهل الهوى والمتكلمين والفلاسفة، يقول:

«إعلم أن من يخشى الله عزوجل لن يجرؤ أبداً على تكفير من يقول: لا إله إلاّ الله، محمدرسول الله... لن يتجرأ أحد على تكفير أحد إلاّ إذا خرج هو نفسه عن أُصول الدين وأنكر الشهادتين، وبذلك يكون قد خرج من الاسلام...»[182].

---

١٧٩ ــ المصدر نفسه.

١٨٠ ــ «الفصل» ج٢ ص ٢٤٧.

١٨١ ــ «الفصول المهمة» نقلا عن «طبقات» الشعراني.

١٨٢ ــ المصدر نفسه.

ويقول الأوزاعي: «والله لو قطعت إرباً إرباً فلن أفتح في بتكفير أحد من أهل الشهادتين»[183].

وسئل الحسن البصري عن أهل الأهواء، فقال:

«جميع أهل التوحيد هم أمة محمد(ص) وسيدخلون الجنة دون ريب»[184].

كما افتى الزهري، وسفيان الثوري، وسعيد بن المسيب، وغيرهم بحرمة تكفير المسلم ومعاداته.[185]

أما وقد ثبت الآن عدم وجود أي أساس شرعي لتكفير المسلمين، وثبتت معارضه الاسلام له من جميع الوجوه، فقد أصبح من واجب المسلمين عموما، وعلمائهم خصوصا ــ لكونهم الحفظة لتعاليم الاسلام وأوامره ــ أن يبذلوا كل ما في قدرتهم من جهد لغسل وصمة العار هذه عن جبين المجتمع الاسلامي، ولاقتلاع جذور هذه الظاهرة المشؤومة، ليريحوا خواطر المسلمين الذين ظلوا سنين طوالا يتحملون أنواع العذاب والآلام والتشتت والبغضاء، وليعيدوا علائق الأُخوة والروابط الاجتماعية، المبنية على أصول العقائد الاسلامية وفروعها، الى ما كانت عليه من القوة والتلاحم، وليجتمع المسلمون من جميع الفرق والعناصر على الاعتصام بحبل الله، وليقدروا قيمة هذه الطليعة التي بزغت اليوم في سماء إيران الاسلام وليستلهموها، وبذلك يمكن إزالة ما هنالك من مشاعر الحقد والكدر الواهية، ليقف الجميع كالجدار المرصوص ويداً واحدة يتحلّقون حول الاسلام ويقطعون أيادي الاستعمار، آملين أن يعثر المسلمون على ذواتهم وعظمتهم ومجدهم مرة أخرى في ظل هذه النعمة الإلٰهية، نعمة التآلف والمحبة والاتحاد بين جميع المسلمين].[186]

---

١٨٣ ــ المصدر نفسه.

١٨٤ ــ المصدر نفسه.

١٨٥ ــ «الفصل» ص ٢٤٧.

١٨٦ ــ «حوزه» عدد آبان ١٣٦٥ ص ٧٦.

مذبحة المسلمين في كربلاء على أيدي الوهابيين

[تطالعنا في تاريخ حياة الوهابيين الاسود صفحات مليئة بالفواجع والحوادث المؤلمة لا يمكن لتقادم الزمن أن يمحوها من الأذهان، منها تلك الواقعة المشؤومة التي حدثت سنة ١٢١٦ هـ في مدينة كربلاء المقدسة. وإليكم خلاصة لما حدث، منقولة من كتاب «تاريخ كربلاء» للدكتور السيد عبدالجواد الكليدار:

«أكبر الفواجع التي حدثت في كربلاء بعد واقعة الطف في عاشوراء الحسين(ع) هي الفاجعة التي ارتكبها الوهابيون بحق أهل كربلاء سنة ١٢١٦ هـ، تلك الفاجعة الأليمة التي ما زال صداها يرنُّ في أسماع الدول الاسلامية والاوروبية، وقد كتب عنها المؤرخون المسلمون والاوروبيون، واعتبروها الواقعة الأليمة الثانية التي تقع في تاريخ كربلاء»[١٨٧].

ويقول ستيفن هميسلي لونگريك في كتابه «أربعة قرون من تاريخ العراق»:

«لم يكن عرب نجد يختلفون في عقائدهم الدينية عن سائر الفرق الاسلامية حتى أواخر القرن الثاني عشر الهجري، إلى أن ظهر فيهم محمدبن عبدالوهاب بمذهبه الجديد القائم على رغبات البدو وأهوائهم.

وقعت أفكار محمدبن عبدالوهاب يومئذ موقع القبول لدى محمدبن سعود، أمير البادية. ورحل محمدبن عبدالوهاب الى بغداد لمواصلة الدراسة، ثم عاد إلى المدينة ومنها إلى العوينة في نجد.

إن الفاجعة الأليمة التي ارتكبها الوهابيون بمنتهى الوحشية والطمع والجشع باسم الدين، حدثت عندما تحرك الوهابيون لمحاربة المسلمين.

عندما وصل خبر وصول الوهابيين الى مشارف كربلاء، كان معظم أهالي كربلاء قد قصدوا النجف بقصد الزيارة، فأسرع الذين بقوا منهم بإغلاق أبواب المدينة.

---

١٨٧ ــ «تجزيه و تحليل» ص ٢١.

كان الوهابيون قد جاءوا في ستمئة من المشاة وأربعمئة راكب، فعسكروا خارج المدينة، ثم توزعوا في ثلاثة أقسام، وبدأوا هجومهم من ناحية (باب المخيم) ودخلوا المدينة، فهرب الناس الى كل طرف، واقتحم الوهابيون الطريق الى الحرم المطهر، حيث حطموا الضريح المقدس، ونهبوا جميع ما كان فيه من النفائس الثمينة، كالشمعدانات والسجاد النفيس والثريات المذهبة والأبواب المرصعة بالأحجار الثمينة وغير ذلك، ونقلوها إلى خارج المدينة، وحطموا الكثير من مرايا الأروقة والأبواب، كما قتلوا خمسين شخصا داخل الحرم الطاهر، وخمسمئة في الصحن الشريف.

وفي داخل المدينة ارتكبوا الكثير من الأعمال الوحشية من تدمير ونهب وفساد، فكانوا يقتلون كل من يصادفهم من دون أية رحمة ولا شفقة، ونهبوا جميع الدور. لم يخامرهم في هذه المذبحة أي عطف على الشيخ والشاب والصغير والكبير والمرأة والرجل، بحيث لم ينج أحد من قسوتهم البربرية. قال بعض إن عدد القتلى بلغ ألف شخص، وعدد المجروحين خمسة آلاف شخص».

في سنة ١٣٤٤ هـ أفتى فقهاء الوهابية في المدينة بهدم القبور في البقيع وفي غيره. وفي الثامن من شوال تلك السنة نفسها أمروا بهدم قبر الصديقة فاطمة الزهراء بنت رسول الله (ص)، فهدم. وهكذا هدموا قبور أربعة من أئمة المسلمين، هم: الإمام الحسن المجتبى، والإمام زين العابدين، والامام محمد الباقر، والامام جعفر الصادق عليهم السلام، وكذلك قبور العباس عم النبي، وإبراهيم بن النبي، وقبور زوجاته وعماته، وفاطمة بنت أسد، وحمزة سيد شهداء الاسلام عم النبي، وكأنهم في ذلك كانوا ينفذون ما أمرت به الآية الشريفة:

«قل لا أسالكم عليه أجراً إلّا المودة في القربىٰ»[188].

وقد جاء في كتاب «مرآة الاحوال ــ جهان نما» الذي كتبه بالفارسية العالم الكبير الشيخ أحمد الكرمانشاهي الذي عاصر الحملة الوهابية على كربلاء، وهو

---

١٨٨ ــ «الشورى: ٢٣».

حفيد الفقيه الشيعي المشهور، وحيد البهبهاني، ما خلاصته:

«... في تلك الأيام وصل خبر استيلاء الجماعة الوهابية على كربلاء الشريفة والمذبحة العامة في تلك البلدة الطيبة. وخلاصة الواقعة هي: ان أهالي المدينة المؤمنين كانوا قد توجهوا إلى النجف الأشرف بمناسبة عيد الغدير سنة ١٢١٦ هـ لتقبيل أعتاب أميرالمؤمنين عليه السلام، ولم يبق في كربلاء من الرجال أحد. وإذ عرف سعود غير المسعود بهذا الأمر، هاجم تلك البلدة الطيبة في شهر ذي الحجة وفي يوم عيد الغدير الذي انشغل فيها الناس بالزيارة، فحاصروا القلعة، فانهزم الناس بسبب قلة عددهم، وعدم التهيؤ للأمر، وتخاذل (عمر آقا) الناصبي، حاكم المدينة.

حطم جيش الضلالة بوابة الحصار، ودخلوا المدينة منه و من أطراف أُخرى، وشرعوا يقتلون وينهبون، حتى بلغ عدد المقتولين من المؤمنين والمجاورين والزوار نحو ثلاثة آلاف شخص، وأصاب الهدم والتدمير القبة المباركة وحرم خامس أهل الكساء وسيد المظلومين، ودور المجاورين. وعند الزوال (ظهراً) عادوا إلى (الدرعية) من دون سبب ظاهر»[١٨٩].

كما إن (مير عبداللطيف خان الشوشتري) ــ وهو من السادات النورية الشوشترية ومن حفدة السيد نعمة الله الجزائري، الفقيه المعروف في أواخر العهد الصفوي ــ أورد حوادث تاريخية وغيرها في كتابه «تحفة العالم» وهو من كتب الرحلات، ومنها ما كتبه عن ظهور محمدبن عبدالوهاب وأفكاره وتعاليمه المنحرفة، وهجوم الوهابيين على كربلاء وهدم الضريح والقبور، نذكر جانباً منه إتماما لفائدة القراء الكرام.

يقول المؤلف في ختام رحلته المسماة «ذيل التحفة»:

«... كنت هناك عندما ورد الخبر المشؤوم عن عبدالعزيز الوهابي أنه في الثامن عشر من ذي الحجة من سنة ١٢١٦ هـ هجم بجيش من الأعراب على أرض

١٨٩ ــ «تجزيه و تحليل» ص ٢١.

كربلاء المقدسة وقتل نحواً من أربعة آلاف أو خمسة آلاف من المؤمنين، وأن مظاهر سوء الأدب التي بدت منه نحو الروضة المنورة ممّا لا يمكن التطرق إليه، ونهب المدينة واستولى على ما فيها وعاد إلى مقر رئاسته في الدرعية.

[أما وقد وصل الكلام إلى هذا الموضع، فمن المناسب ان نجيل القلم حول بدع الوهابية ليطلع الناظرون اطلاعا كاملا عليه وعلى مذهبه ولا يبقى في انتظار الكلام منتظر]:

كان الشيخ عبدالوهاب، مؤسس هذا الأساس، من أهل الدرعية، من أعمال نجد، وكان بين أمثاله وأقرانه معروفاً بتوقد الذهن والذكاء، وموصوفاً بالعقل والكياسة، وكان مفرط الجود بحيث أنه كان يهب لأتباعه كل ما كان تحت يده. وبعد أن درس في موطنه شيئاً من العربية ومن الفقه الحنفي، رحل إلى اصفهان حيث استقى الحكمة في بيت الحكمة على أيدي أساتذة فضلاء وحكماء علماء، ونال بعض البصيرة في مسائل الحكمة، التي هي عند العوام كالأنعام، وعاد إلى وطنه سنة ١١٧١ هـ أو في سنة او سنتين قبل ذلك أو بعده ـــ اذ لا يمكن ضبط ذلك بدقة ـــ وأصبح داعية في هذه الأُمة. كان على الطريقة الحنفية، يقلد الإمام الأعظم أبا حنيفة في الأُصول، وفي الفروع يتبع أراءه الشخصية. ثم بعد ذلك لوى جيده عن قلادة تقليد الامام الأعظم، وأخذ يفتي مستقلا بما يستحسنه، ويدعو الناس إلى ذلك. من ذلك أنه اعتبر جميع الفرق الاسلامية واليهود والنصارى وسائر أصناف الأنام مشركين وكفاراً وفي عداد عبدة الأصنام. ودليله في ذلك أن المسلمين بتعظيمهم وتوقيرهم قبر سيدالرسل (ص) وروضته المقدسة، وقبور أئمة الهدى المنورة وبقاع الأوصياء والأولياء النيرة، ولانجاح امورهم الدنيوية والأُخروية يتوسّلون ويتضرَّعون إلى تلك الأماكن المبنية من الحجر والطين، أو إلى أصحاب تلك القبور الأموات، ويسجدون أمام القبور، ويمرِّغون جباههم في التراب على أعتابها، فهذه كلها ليست سوى عبادة الأصنام، فكما ان عبدة لأصنام لا يدَّعون أن تلك الهياكل هي الله، بل يقولون إنها قبلتهم وإنهم بوساطتها يسألون الله أن يقضي لهم حاجاتهم، كذلك هي حال اليهود والنصارى الذين ينصبون في

معابدهم وكنائسهم تماثيل موسى والمسيح ويعبدونها ويستشفعون بها. أمّا عبادة الله فهي السجود لذات واجب الوجود، وعبادته جل شأنه، وعدم جعل شريك له.

فتبعه في ذلك جمع من قبيلته ومن العامة، وصار له في أوساط نجد صوت واشتهار، ولم يزل يردد أنه سوف يهدم قبة رسول الأنام ومراقد الأئمة الكرام وأنه يضع نصب عينيه عندما يتسلم السلطة بيده أن يساويها مع التراب ويمحو كل أثر لها، ولكن الأجل لم يمهله فمات قبل أن يحقق رغباته. وبعده لم يكتف وصيه عبدالعزيز، ولا ابنه سعود، خليفته، الذي يسمى بأمير المسلمين، بأتباعه في نواحي نجد، بل دعا الناس البعيدين أيضا إلى طريقته، وسعى في الترويج لها، وأباح لأتباعه وأُمته أموال سائر المسلمين ودماءهم، وأمرهم بقتل كل من يجدونه في كل مدينة يدخلونها ونهب أموالهم، ولكن عليهم أن لا يتعرضوا بسوء إلى النساء وأعراض الناس. وأعطى لكل (مجاهد) محارب صكا باسم (خازن الجنة) يعلّقه في رقبته لكي يدخل الجنة، إذا قتل، مباشرة ومن دون سؤال، ويعيل بعياله في الدنيا من بعده. فكان أتباعه يلقون بأنفسهم في المعارك، يحدوهم الطمع في ما ينهبون، والأمل في دخول الجنة، لأنهم إذا انتصروا غنموا، وإذا قُتِلوا أتاحت لهم صكوكهم دخول الجنة مباشرة.

وفي سنوات استولى على اطراف نجد والأحساء والقطيف وأكثر بر العرب حتى اربع فراسخ من البصرة، وقريبا من عمان، وتغلّب على بني عتبة، وبعد أن قتل وأسر ونهب، دخل الناس في دنيه وآمنوا بطريقته وأذعنوا له، وذاع حديث قوته وشوكته. وعلى الرغم من أن أخبار فتوحاته كانت تصل إلى قيصر الروم وشاه العجم، فإن أحداً منهما لم يتقدم لدفعه».

بعد ذلك يورد صاحب «تحفة العالم» جانباً من رسالة محمدبن عبدالوهاب في الفتوى والعقائد، قائلا إنه رآها عند أحد أتباعه، ثم يعلّق عليها بقوله:

«على الرغم من أن أدلته يستند فيها إلى الآيات الكريمة، فإن ردّها موجود في كتاب الله أيضا، مثل تعظيم شعائر الله، واطاعة رسول الله التي لا تنفكّ عن

إطاعة الله، فإذا ثبتت إطاعة رسول الله كفرض عيني، فإن الآية الكريمة «وما ينطق عن الهوى إن هو إلّا وحي يوحى» تؤيد هذا المعنى، ممّا يستوجب، كما قال النبي (ص)، الإقرار بالجنان والأركان و اللسان، باعتباره من أوجب الواجبات، ولا يجوز التخلف عمّا نزل عليه وما قاله. وعليه فإذا شاء أحد، في التوسل والتضرّع والشدائد ودفع الضرر وجلب النفع وأيام الرخاء وطلب المثوبات الأُخروية، أن يجعل رسول الله (ص) أو جمعاً من الأخيار وأولي الأمر، شفيعا، فلا بأس في ذلك ولا ضرر فيه على أية عقيدة. ولكنه مع أقواله يجعل من السيف البتار برهاناً قاطعاً، وهذا ما لاجواب له إلا سيف بتار مثله.»[١٩٠]

هنا ينتهي كلامنا في هذا الكتاب، ونحمدالله على أن وفقنا لتقديم هذه الخدمة البسيطة. والكمال لله وحده. والحمدلله ربّ العالمين.

---

١٩٠ ــ «تحفة العالم وذيل التحفة» سفرنامه وخاطرات ميرعبداللطيف خان شوشتري، به اهتمام: ص. موحد. انتشارات طهوري، ص٤٧٧.

السعر : ٥٠٠ ريال